

أَصْبِحْ إِنْسَانًا



جان فانييه

نشر الموقع الإلكتروني للكنيسة الكلدانية في بريطانيا

www.chaldean.org.uk

أَصْبِحُ إِنْسَانًا

جان فانبيه

Becoming Human

Jean Vanier

House of Anansi Press Limited

Canada.Toronto

1998

نقله الى العربية

الأب حبيب هرmez النوفلي والمهندس جيرار بطرس
المراجعة العلمية الدكتور باهر سامي بطي
المصحح اللغوي سليم عتيشا

Bartolome Esteban لوحة الغلاف: الابن الشاطر للفنان

بإذن الرؤساء

كنيسة مار كوركيس الكلدانية

2001 - بغداد

"بما إتكم فعلتم بأحد اخوتي هؤلاء الصغار فبي فعلتم" (متى 25: 40)

من هذا المبدأ انطلق الكثير من المؤمنين والمؤمنات بكل غيرة رسولية لكي يخدموا اخوة يسوع الصغار لأنهم كانوا مقتنعين بأنهم يخدمون الرب نفسه، ولهذا قدّموا يد المساعدة بطرق شتى لكل الذين كانوا بحاجة، من مختلف الأعمار والطبقات البشرية، منتصرين على كل الصعوبات، مقدّمين كل التضحيات، غير مبالين بالآلام والأتعاب، وفي كل هذا كانت العناية الإلهية ترعاهم، ويد الرب تقودهم والقوة الخفية تعضدهم وتسير الطريق أمامهم.

فمن جملة هؤلاء نجد الأخ جان فانييه الذي شقّ طريقاً طويلة في خدمة المعاقين والمهملين المهمشين إنسانياً وروحياً، كي يظهر للعالم أن قوة الله تظهر في الضعف، وأن الله لا يترك أبناءه الذين يحبهم وخاصة هؤلاء الأخوة الصغار المحتاجين الى المساعدة والإحتضان والذين بواسطتهم يريد أن يخزي المتكبرين والمتكلمين على أنفسهم. وبهذا أراد أن يعلمنا درساً بليغاً، درس المحبة هذا، وهو أن لا نترك أحداً ولا نهتمّس أحداً، بل أن نصغي ونساعد ونتقبل كل إنسان لأنه أخ صغير ليسوع.

إن ما قام به الأب حبيب هرمز والمهندس جيرار بطرس في ترجمة هذا الكتاب الذي أطلعنا عليه، هو عمل جميل جداً، لكي يوصل رسالة الصالحين إلى اخوتهم البشر، فبارك الله في جهودكم، أيها الأعضاء في عمل الخير وزرع المحبة للوصول الى الوحدة. فلا مانع من طبعه

المطران شليمون وردوني

المعاون البطريركي

البطريركية الكلدانية بغداد في 2001/5/1

الفهرست

الصفحة

4.....	مقدمة المترجمين
9.....	مقدمة المؤلف
12.....	الفصل الأول: الاحساس بالوحدة
54	الفصل الثاني: الانتماء
99	الفصل الثالث: من النبذ الى الضم، طريق الشفاء.....
144	الفصل الرابع: الطريق الى الحرية
183	الفصل الخامس: المغفرة

مقدمة المترجمين

بعد الإقبال الكبير من قبل قرائنا الأعزاء على التعمق في كتابات الأخ جان فانييه المنشورة بالعربية، قررنا الاستمرار في ترجمة أعماله الفكرية لتكون في متناول أيديهم لما تحويه من غزارة في الفوائد العديدة، وبرزها الفائدة الروحية، كونها ترشدنا الى الكيفية التي يمكن ان نفتح الباب على مصراعيه لاستقبال نسيم الروح القدس الذي يهب علينا ونحن نعمل او نصلي.

ان الإنسان هو اعظم مشروع لله على الأرض، خلقه تعالى كي يساهم في الخلق والإبداع، فهو مدعو الى ان يعيش إنسانيته وسط الجماعة في اخوة وتفاعل حياتي نشيط ومملوء من عوامل الخير والمحبة والسلام. وهذا يتطلب مواجهة الواقع الذي كثيراً ما يحوي أحداثاً مظلمة تفوح منها رائحة الشر والكرهية والنبد وإفرازات الأنانية المبالغ بها.

لقد صارح الأنبياء والرسل من خلال حياتهم هذا الواقع المظلم أحياناً، فامتلاًوا رجاءً بعالم يسوده السلام والإخاء والطمأنينة، وها نحن اليوم نعيش سنوات الحصار الظالم الذي تفرضه القوى الداعية الى العولمة البغيضة والتي تتطلب منا التخلي عن خصوصيتنا كشعب وادي الرافدين الأصيل، فصار لزاماً علينا إدامة العمل الإنساني النابع من القيم السماوية، والتي يعتبر الاهتمام بالاخوة المعاقين عقلياً من احد أنشطتها. وهذا ما تجتهد لتحقيقه أخويات

الكنائس كرد إنجيلي على أولئك الذين يريدون تدمير روحية الناس العاملين بعزة نفس قلّ مثلها بين شعوب العالم.

ننتهز فرصة إصدار هذا الكتاب لتوجيه الشكر القلبي لكل من يعمل ويصلي في بلدنا الحبيب من مؤسسات الدولة والأفراد، كي يبقى الإنسان قيمة عليا وغاية كل مرفق من مرافق الحياة.

شكراً إلى الدكتور باهر بطي لملاحظاته القيمة عند ترجمة هذا الكتاب وقيامه بالمراجعة العلمية المطلوبة خصوصاً في مجال علم النفس.

كنيسة مار كوركيس /بغداد

2001/1/17

قد يبدو لقارئ كتاب "أصبح أنساناً" موضوع المحبة سهلاً و بسيطاً او يبدو مثالياً، و الحقيقة التي أراها ان جان فانويه يريد أن يدفعنا إلى إعادة النظر في حقيقة موقفنا من الحياة بشكل شامل. انه يمسك بأدواته بحذاقة ليفكك اعرق قلق للإنسان ألا وهو قلق الموت، فالإنسان يخاف من الوحدة لانه يخاف من الموت، ويكشف لنا فانويه هربنا من هذا القلق إلى انتماء سطحي بجماعة تمنحنا الطمأنينة باصطناع صراعات تغطي جوهر قلقنا، ويعيد بنائنا في انتماء أصيل إلى جوهر و معنى الوجود، فانويه يستخدم مرآة هي الأخ المعاق فنعيد بناء فهم و فعل المحبة معه وله ومن خلاله. جان فانويه يريد ان يدلنا على طريق الوجود الإنساني و معنى ان "تحيا بالنعمة"، فلنقرأ كتابه مرتين... على الأقل!!..

د. باهر بطي

بغداد/2000

سلسلة محاضرات في كلية ماسي

ترعى كلية ماسي في جامعة تورنتو ورايو CBS هذه المحاضرات. فلقد تأسست هذه السلسلة على شرف الموقر حاكم كندا العام السابق، ودُشنت في سنة 1961 لتُمكن المراجع المرموقة من نقل وإيصال نتائج الدراسات والبحوث الأصلية في المواضيع التي تنال الاهتمام المعاصر.

يحتوي هذا الكتاب على محاضرات كلية ماسي لسنة 1998 بعنوان " اصبح إنساناً " **Becoming Human** ". وقد بُثت في شهر تشرين الثاني سنة 1998 كجزء من سلسلة أفكار في برنامج راديو CBS، حيث كان منتج السلسلة السيد فيليب كولتر، أما المنتج المنفذ فكان بيرني لوست.

جان فانييه

جان فانبيه هو أبن حاكم كندا السابق جورج فانبيه، وهو مؤسس " السفينة " l'Arche، كشبكة عالمية من جماعات من الناس المعوقين عقليا. بعد سنوات من الدراسة وتدريس الفلسفة واللاهوت، وفي سنة 1964، أبتاع فانبيه بيتا في تروسلي . برويل Trosly – Breuil، في فرنسا، ودعا اثنين من المعوقين عقليا ليعيشا معه. وأطلق أسم " السفينة " على البيت، تمثلا بسفينة نوح، إذ كان يستخدمه كملاذ وملجأ وبداية جديدة. يمثل السفينة الآن شبكة من أكثر من 100 جماعة في أكثر من (30) بلدا، يسكن فيها أناسٌ معوقون ومن يقوم على رعايتهم، والهدف هو تحقيق حسٍ جماعي بالمشاركة والكرامة التي لا يمكن تحقيقها في أية مؤسسة. وهو أيضا مؤسس مساعد مع ماري . هيلين ماثيو لجماعة " الإيمان والنور Faith and light " التي تجمع أناساً معوقين مع أهلهم وأصدقائهم، في لقاءات تتم في أوقات منتظمة، حيث توجد الآن (1300) جماعة من جماعات الإيمان والنور موزعة على (75) بلداً.

يتكون هذا الكتاب في أساسه من خمس محاضرات ألقيتها في راديو (CBS) اتحاد البث الكندي في برنامج آراء في محاضرات ماسي لعام 1998 بتكليف من كلية ماسي في جامعة تورنتو. وقد أجريت تصحيحات طفيفة وإضافات قليلة للمزيد من الوضوح في النص المطبوع.

في البداية كان المفروض أن تخرج هذه المحاضرات تحت عنوان " من الفوضى إلى الحياة " إلا أنني أثناء عملية الكتابة شعرت بأني يجب أن أسميها "أصبح إنساناً".

أليست هذه مهمتنا جميعاً في الحياة... أن نحقق إنسانيتنا؟ قد تكون عملية طويلة وأحياناً مؤلمة، إذ تتضمن النمو وصولاً إلى الحرية، وفتح قلوبنا على الآخرين، والكف عن الاختباء وراء الأقتعة وجدران الخوف والأحكام المسبقة. أنها تعني اكتشاف إنسانيتنا المشتركة.

من الغريب أن عملية التحقق الإنساني هذه ترسخت في ذهني بصورة أعمق عندما بدأت العيش مع رجال ونساء معوقين عقلياً، أشخاص عاجزون على المستوى العقلي والعملي، ولكنهم موهوبون على صعيد العلاقات. أنهم أناس القلب والثقة، ومعهم بدأت أكتشف بان النضج الإنساني يتم عندما نبدأ بجمع رؤوسنا وقلوبنا معاً. وفي فترة بلوغي المبكرة، كنت قد طورت قدراتي العقلية (الذكائية) والعقلانية. إن حياتي مع المعوقين دعنتني إلى تطوير قدراتي على إقامة علاقات مع الآخرين حيث تعلمت كيف ازداد انفتاحاً، واحتمال تعرضي على الآخرين بالأذى، خصوصاً ممن يختلفون عني.

ان هذا الكتاب ينبثق أساسا عن الإنسانية وليس كنتيجة مباشرة لحياتي الإيمانية. حيث أجد أننا لا نستطيع أن ننمو روحيا إذا تجاهلنا إنسانيتنا، مثلما أننا لا نستطيع أن نصبح بشرا كاملين إذا تجاهلنا الجانب الروحي فينا ؛ وعليه فإن هذا الكتاب ينتمي أكثر إلى علم الأنثروبولوجي. حيث بدأت أكتشف أكثر وأكثر بأن الفهم الأنثروبولوجي ضروري لتفهم حياة إيماننا فهما جيدا.

يحاول هذا الكتاب أن يضع بعض الأسس، وأن يفتح الباب أمام الروحانيات، إلا أنني امتعت متعمدا الدخول في تفاصيل معمقة على هذا الصعيد وذلك لأثبت بوضوح أكبر الأسس الإنسانية للروحانية والكمال والقداسة. كان فيليب كولتر Philip Coulter هو المنتج في الإذاعة، وقد أعاد تنظيم وهيكلية هذه الأحاديث (المحاضرات) ومنحها دقة أكبر، لقد عمل بجد ليجعلها أوضح، وأكثر تكيفا للمستمعين والقراء. لقد أسعدني العمل معه وأنا ممتن لكل ما تم إنجازه.

أود أيضا أن أشكر الأشخاص التالية أسماؤهم الذين قرأوا خلال النص في مراحل مختلفة وقدموا لي مقترحات ساعدتني في مهمتي: كولن مالوني، آن أوسلر، كرس سادلر، ديفيد فورد، جورج دورن، كارين دونالدسون، جون كنيشتل، مارغريت أو، دونيل، وكاثرين هال.

وأخيرا أقدم شكري لجون فريزر، عميد كلية ماسي، واتحاد البث الإذاعي الكندي CBS وبرنامج الراديو " أفكار " للفرصة التي أتاحوها لتقديم هذه الأفكار لجمهور واسع من المستمعين.

جان فانييه

الفصل الاول

الإحساس بالوحدة

يدور موضوع في هذا الكتاب حول تحرير القلب الإنساني من الإحساس بالوحدة، ومن تلك المخاوف التي تحثنا وتدفعنا في نبذ الآخرين وإخراجهم من حياتنا، إنه تحرير يفتح دواخلنا ويقودنا إلى اكتشاف إنسانيتنا المشتركة. أريد أن أبين أن هذا الاكتشاف إنما هو رحلة ننقل خلالها من الإحساس بالوحدة إلى الحب الذي يغير، الحب الذي ينمو في ومن خلال الانتماء، انتماء يمكنه أن يحوي ويضم ويمكنه أن يطرد وينبذ. إن اكتشافنا لإنسانيتنا المشتركة يحررنا من الدوافع التي تدفعنا إلى التمرکز على الذات، والتركيز على الأذى الداخلي؛ إنه اكتشاف يجد تحققة النهائي الناجز في التسامح والمغفرة وفي محبة أعداءنا. أنها صيرورة الارتقاء الحقيقي نحو إنسانيتنا الحقيقية.

لا يدور هذا الكتاب في جوهره حول تكوين وتنظيم الجماعة؛ وهو لا يمتلك في جوهره هدفاً ومنظوراً سياسياً المعنى. ولكن الجماعة مكوّنة من أفراد، وكما أننا نفتح تجاه الآخرين ونسمح لأنفسنا بالاهتمام بأوضاعهم، كذلك

يتوجب على الجماعة التي نعيش فيه أن تتغير وتزداد انفتاحا. سنبدأ بالعمل معا من أجل الصالح العام. ومن جهة أخرى إذا كررنا أنفسنا لصنع مجتمع، لا نهتم فيه سوى لحقوقنا، عندئذ ستزداد الجماعة انغلاقا ويتصاعد هذا الانغلاق بصورة تدريجية على نفسها. وحينما لا نشعر بأية مسؤولية تجاه الآخرين، لن نجد سببا يدفعنا إلى العمل بصورة متجانسة وصولا إلى الصالح العام.

لقد انبثقت خبرتي خلال الـ 34 سنة الأخيرة أساسا من [التفاعل] مع رجال ونساء يفكرون إلى الذكاء. في آب من سنة 1964 أسست السفينة: كشبكة من بيوت صغيرة وتجمعات نعيش فيها معا، رجالا ونساءً مصابين بالعمى الفكري ورجالا ونساءً ممن شعروا بأنهم مدعوون لأن يشاركو هؤلاء المعاقين حياتهم. واليوم هناك أكثر من 100 تجمع من تجمعات السفينة في العالم. ومن خلال حياتي في السفينة اكتشفت الكثير عن الإحساس بالوحدة وعن الانتماء، والألم الداخلي الذي ينبع من الإحساس بالرفض. علمتني الحياة المشتركة مع نساء ورجال مصابين بالعمى الفكري الكثير عما يعني أن يكون الإنسان إنسانا. قد يبدو غريبا للبعض أن أقول بأن الضعفاء والمنبوذين من الجماعة كانوا معلمين لي. أمل أن يكون بإمكانني أن أكتشف عن القليل مما تعلمته - وما زلت أتعلمه - عن معنى كون الإنسان إنسانا، وعن مساعدة الآخرين في اكتشاف إنسانيتنا المشتركة.

ولم أكتشف معنى الإحساس بالوحدة إلا في "السفينة". لا بد أنني أحسست بالوحدة مرات عديدة قبل السفينة إلا أنني لم أدرك حينها الإحساس بالوحدة كواقع مؤلم، ربما لأنني نجحت في الانغماس في عمل أشياء مختلفة، وربما لأنني لم أسمّها أو لأنني لم أكن بحاجة إلى إعطائها اسماً.

عندما بدأت استقبال المعاقين ذهنيا في السفينة، رجالا ونساءً من مؤسسات، ومستشفيات الطب النفسي، والعائلات المعنتة نفسياً، بدأت أدرك كم كانت درجة الإحساس بالوحدة لديهم. اكتشفت الإحساس البشع بالفوضى التي يسببها الإحساس البالغ بالوحدة. وبإمكان الأعمال التي نقوم بها أن تغطي الإحساس بالوحدة، ونحن نسعى إلى اعتراف الآخرين بنا وبنجاحنا . وهذا هو بالتأكيد ما فعلته وأنا في باكورة سن البلوغ. وهو الأمر الذي نفعله جميعاً. فنحن كلنا نمتلك ذلك الدافع الذي يدفعنا إلى فعل أشياء يراها الآخرون، أشياء قيّمة، أشياء تجعلنا نرضى عن أنفسنا وتعطينا الإحساس بكوننا أحياء ونحن لا نحس بالوحدة حقاً إلا عندما نعجز عن الأداء أو عندما يبدو أن الخيال يخوننا.

قد يبدو الشعور بالوحدة كإحساس ضعيف بالمرض، وشعور داخلي بعدم الرضا وقلق نحس به في القلب. وقد يحل الإحساس بالوحدة في أي وقت. يحل في أوقات المرض أو عند غياب الأصدقاء ؛ يحل في ليالي الأرق الطويلة عندما يكون القلب مثقلاً بالهموم، ويحل في أوقات الفشل في العمل أو فشل العلاقات، وعندما نفقد الثقة بأنفسنا وبالآخرين. ويتقدم بنا العمر، حيث بإمكان الشعور بالوحدة أن يتصاعد ويهدد ليهيمن على حياتنا. وفي مثل هذه الحالات تفقد الحياة معناها. إذ إن الإحساس بالوحدة يمكن أن يساوي الشعور بالموت.

عندما يكون الناس أصحاء جسمانياً ومبدعين في أعمالهم وحياتهم، ناجحين فيها، يبدو الإحساس بالوحدة غائباً. إلا أنني على يقين بأن الإحساس بالوحدة شيء متأصل في طبيعة الإنسان؛ وليس بالإمكان إغائه بل تغطيته وحسب، وهو لا يمكن أن يزول فعلاً بصورة نهائية. الإحساس بالوحدة جزء من

الكينونة البشرية ذلك لأن لا شيء في الوجود يمكن أن يفني بكل حاجات القلب البشري.

إن الإحساس بالوحدة هو شيء أساسي لإنسانيتنا. الإحساس بالوحدة يمكن أن يصبح مصدراً لطاقة خلاقة، تلك الطاقة التي تدفعنا باتجاه سبل جديدة لخلق أشياء جديدة أو السعي إلى المزيد من الحقيقة والعدل في العالم. غالباً ما يكون الفنانون، والشعراء، والمتصوفة، والأنبياء، أولئك الذين يبذلون وكأنهم على غير وئام وتلاؤم مع العالم والجماعة، أشخاص يحسون الوحدة، يشعرون بأنهم مختلفون، غير راضين عن الأوضاع الراهنة والمواقع الوسطية؛ فيبدون غير راضين عن عالمنا الذي يعمه التافس، حيث تُهدر الكثير من الطاقة في أمور تافهة. وغالباً ما يكون الشخص الذي يحس بالوحدة هو الذي يثور ضد الظلم ويبحث عن طرق جديدة في الحياة. يحس وكأن ناراً تحترق في داخله، ناراً وقودها الإحساس بالوحدة.

إن الإحساس بالوحدة هو القوة الأساسية التي تدفع المتصوفين إلى اتحاد أعمق مع الله. يصبح الإحساس بالوحدة لمثل هؤلاء الناس شيئاً لا يحتمل، إلا أنهم بدلاً من الانزلاق في اللامبالاة أو السخط يستخدمون طاقة الإحساس بالوحدة للبحث عن الله. وهذا يدفعهم باتجاه المطلق. أن الخبرة مع الله تطفئ هذا العطش إلى المطلق، ولكنها في نفس الوقت تشحذه، وذلك لأن هذه الخبرة لا يمكن أن تكون تامة ونهائية أبداً؛ لذا فإن معرفة الله تكون جزئية دائماً. وعليه فإن الإحساس بالوحدة يفتح نفوس المتصوفين إلى الرغبة حسب كل فرد وكل كائن إنساني كما يحبهم الله نفسه. وعليه يمكن للإحساس بالوحدة أن يكون قوة لتحقيق الخير. إلا أنه غالباً ما يكشف عن أوجه أخرى أقل

إيجابية، إذ يمكن أن يكون مصدرا للامبالاة والاكتئاب، بل وحتى الرغبة في الموت. ويمكنه أن يدفعنا إلى الهرب والإدمان كحاجة يدفعنا إليها ألمانا الداخلي والنداء الذي نحس به. هذه اللامبالاة غالبا ما تكون الوجه الذي يظهر الإحساس بالوحدة من خلاله عند المتقدمين في السن والمصابين بالعوق الذهني. والإحساس بالوحدة هو الذي تعثر عليه عند أولئك الغارقين في الاكتئاب، والذين فقدوا المعنى في حياتهم، الذين يسألون السؤال الذي يتولد عن اليأس: ما الذي بقي ؟.

زُرت مرة مستشفى من مستشفيات الطب النفسي، وهو مستشفى - ونوعاً ما - هو مخزن للتعاسة البشرية. حيث مئات من الأطفال المعاقين والذين كان عوقهم مستقحلا يضطجعون مُهملين على أسرَتهم. وكان يحيط بهم صمت حيث لم يكن أحد منهم يبكي. عندما أدركوا بأن أحدا لا يهتم، وأن أحدا لن يستجيب لصراخهم، يتوقف الأطفال عن البكاء. إنه أمر يتطلب طاقة كبيرة. نحن لا نبكي إلا عندما يوجد رجاء في أن أحدا يمكن أن يسمعنا.

مثل هذا الإحساس بالوحدة يتولد من اكتئاب تام ومطلق، من أعرق أعماق الحفرة التي يمكن للروح البشرية أن تعثر على نفسها فيها. يكشف الإحساس بالوحدة الناشيء عن الاكتئاب عن نفسه على شكل فوضى. هناك ارتباك وتشوش، والخروج من هذا التشوش قد يولد الرغبة في تدمير الذات، الرغبة في الموت. وعليه فالإحساس بالوحدة يمكن أن يؤدي إلى معاناة قاسية، صرخة ألم. وينعدم الضوء والعزاء والشعور بالسلام في القلب وانعدام البهجة التي تبعثها الحياة. مثل هذا الإحساس بالوحدة يكشف عن المعنى الحقيقي للفوضى.

وهكذا لا تعود الحياة تجري في دروب منظمة معروفة. أما الشخص الذي غرق في هذا الشكل من الإحساس بالوحدة فلا يحس سوى بالخواء والكرب والتهيج الداخلي؛ وتتعدم لديه التطلعات والرغبات، والرغبة في الحياة. فيشعر مثل هذا الشخص بأنه معزول تماماً عن الجميع وعن كل شيء. وتصبح الحياة بالنسبة إليه مقلوبة رأساً على عقب وينعدم كل النظام والانتظام المعروف لديه. والذين يغمروهم الاضطراب والفوضى يفتقرون إلى القدرة على إقامة علاقات مع الآخرين أو الإنصات إليهم وتبدو حياتهم في نظرهم لا معنى لها. ويعيشون في ارتباك تام، منغلقين على أنفسهم. وهكذا بإمكان الوحدة أن تصبح كرياً فُقدت السيطرة عليه بحيث يصبح من السهل الانزلاق في فوضى وتشوش الجنون.

اسمح لي أن أخبرك بعض القصص التي تعود إلى خبرتي الخاصة، عن الضرر الذي يمكن للإحساس بالوحدة أن يخلقه. قابلت أيريك للمرة الأولى في 1977 كان يعيش في عالم طفولي في المستشفى المحلية للطب النفسي، على بعد أربعين كيلو متراً من تجمع السفينة في تروسلي / فرنسا. كان أعمى وأصم بالإضافة إلى عوق شديد في القدرات العقلية؛ لم يكن بإمكانه لا أن يسير أو يأكل لوحده. قدم إلى السفينة في سن السادسة عشرة، تعج نفسه بحاجات هائلة لم تشبع، وتعج نفسه بالكرب والألم المبرح ومخاوف شتى. وكثيراً ما كان يجلس على الأرض، وكلما أحس شخصاً بالقرب منه كان يمد ذراعيه ويحاول أن يمسك به ويتسلق عليه، وكلما نجح مرة في جعل شخص يحضنه و يمسك به كانت تتحول حركاته إلى هياج مسعور: كان يفقد السيطرة على نفسه، يكافح في سبيل أن يحتضن، وكان في ذات الوقت يقوم بالنط والقفز في مكانه.

لم يعد بالإمكان تحمل أيريك على هذه الحال، ويصبح لا بد من الكفاح للتخلص منه وهو يصارع من أجل أن يبقى في أحضان الشخص الذي أمسك به. كان شخصا يبدو أنه كان يعيش كربا عظيما.

إن الكرب هو هياج داخلي وطاقة فوضوية لا تتركز على أي هدف مهما كان، فهو يعدم النوم وغيره من الأنماط التي تسير الحياة وفقا لها ويؤدي بنا إلى الارتباك. الإحساس بالوحدة هو شعور الشخص بأنه مرفوض وغير مرغوب فيه وغير محبوب، وبالنتيجة يشعر بأنه غير قابل لأن يُحب. للإحساس بالوحدة مذاق الموت. ولا عجب أن بعض الأشخاص الذين يغمرهم إحساس حاد بالوحدة يستسلمون للأمراض الذهنية ويلجأون إلى العنف للتخلص من الألم الداخلي.

كان أيريك شابا يحس بوحدة فظيعة، كان بحاجة إلى الحب، إلا أن حاجاته كانت شديدة الحدة بحيث لم يكن بإمكان أي شخص أن يلبيها. وقد أستغرقه وقت طويل في السفينة قبل أن يحصل على بعض الهدوء الداخلي. وشيئا فشيئا، وهو يتعلم كيف يثق بأولئك الذين حواليه، أكتشف بأنه كان محبوبا.

وبغية المقارنة، كان بيير الطفل السابع في عائلة مكونة من 13 شخصا، أب أمضى سبع سنوات في السجن، وقد قابلته في مونتريال. كان قد هرب من البيت عندما كان في الثانية عشرة من عمره لأنه شعر بأن عائلته لا تهتم به ولا تريده. وعليه فقد عاش زمنا طويلا مع عصابات الإجرام في الشوارع والأزقة. كان في قلبه شخصا وحيدا يشعر بالضياع. إذ لم يكن لديه مكان

يذهب إليه، لم يعد هناك معنى لحياته. كان بحاجة إلى صديق، إلى معلم، إلى شخص يستطيع أن يساعده في العثور على نفسه ويعطيه هدفا في الحياة. في السادسة عشرة من عمره ارتكب ببيير جريمة، وأنا مؤمن بأنها كانت صرخة تطلب العون. وقد دخل السجن نتيجة لذلك. وهو في السجن أحب امرأة كانت تزور السجن بانتظام، وتزوجا وتسربلت حياته بمعنى جديد، لأنه حصل أخيرا على شخص وعلى شيء يعيش من أجله. كانت بداية الطريق لارتقائه نحو إنسانيته، وقد حدث هذا لأنه شعر بأنه محبوب.

في مجموعتنا التي تنتمي إلى السفينة نختبر في داخلنا بأن الشفاء الداخلي العميق يتحقق أساسا عندما يشعر الناس بالحب، عندما يشعرون بالانتماء. أن تجعلنا في جوهرها مناطق يستطيع الناس فيها أن يخدمون ويبدعون، والأكثر أهمية، حيث يستطيعون أن يُحبون ويُحَبَّون. وهذا الشفاء ينبعث من العلاقات وهو ليس شيئا آليا (أوتوماتيكيا).

لقد تعلمت أن مبدأ مهما يتجسد في هذا الاتجاه: ضرورة تكريس الإنسان نفسه للتغيير نحو الجديد، ضرورة قبول الحركة المستمرة كمفتاح أساس لإنسانيتنا وكطريق وحيد للارتقاء نحو الإنسانية الحقيقية.

كانت تعم في داخل أيريك وببيير الفوضى وانعدام النظام. ومع ذلك كان هناك طريق في وسط هذه الفوضى للخروج منها. أليست حياتنا كلها حركة تتجه من النظام والانتظام إلى اللانظام والفوضى، وهذا بدوره يؤدي إلى نظام جديد؟

النظام والفوضى

توحي مسيرة الحياة نفسها بوجود نمط ثابت من الحركة تنتقل فيها الحياة من النظام إلى الفوضى ولا يتوقف هذا الانتقال أبداً. فالولادة، والبلوغ (سن المراهقة)، والشيوخوخة كلها دروب مليئة بالمعاناة. وأخيراً هناك الفساد النهائي والفوضى تلك التي تأتي مع الموت. نواجه خلال الحياة حالات من الفوضى تنتج عن المرض، والحوادث، وفقدان العمل، وفقدان الأصدقاء، هذه الأزمات التي تحل الاضطراب في مناهجنا الحياتية وإجراءات الحماية التي نتخذها، وخططنا التي نخطط لها بكل عناية. مثل هذا الاضطراب يتطلب إعادة تدريجية للتنظيم في حياتنا، والفترة الانتقالية التي تمثلها أزمة كهذه ليست فترة سهلة. إنه وقت نصاب به بالخسران، وهو وقت نحصل فيه على شيء جديد. إنه وقت الكرب والغم.

إنّ في الكائن الإنساني شد مستمر بين النظام والفوضى، الارتباط والإحساس بالوحدة، التغيير والثورة، الأمان والافتقار إلى الأمان. إن كوننا يتطور باستمرار: ويفسح النظام القديم الطريق أمام نظام جديد، وهذا الأخير ينهار كذلك عندما يظهر النظام الذي يليه. وهذا كله لا يختلف عن الحركة من الولادة إلى الموت في حياتنا.

إنّ التغيير من نمط إلى نمط مختلف هو جوهر الحياة. وعليه سيكون هناك دائماً إحساس بالوحدة والافتقار إلى الأمان، تلك الأمور التي ترافق التغيير. وعندما نرفض تقبل الإحساس بالوحدة والافتقار إلى الأمان باعتبارهما جزء من الحياة، وعندما نرفض تقبلهما باعتبارهما ثمن التغيير نكون قد أفلنا الباب أمام العديد من الاحتمالات التي يمكن أن تتاح أمامنا؛ وهكذا نقل فرص الحياة أمام أنفسنا، وتصبح إنسانيتنا أقل من مداها الحقيقي. أما إذا حاولنا أن

نمنع أو نتجاهل حركة الحياة، نعرض أنفسنا لخطر الوقوع في الاكتئاب، ذلك الخطر الذي يرافق أي هدف مستحيل التحقيق. الحياة تتطور ؛ والتغيير عملية مستمرة. وعندما نحاول منع حركة الحياة المتقدمة إلى أمام، قد ننجح في ذلك لفترة من الوقت، إلا أن الانفجار لا بد منه، فتنفخ الأرض نتيجة الحركة المستمرة والتغيير المستمر، وهذا الانتفاخ أكبر من أن يكون بالإمكان مقاومته.

وهكذا تتكون إمبراطوريات الأفكار، بالإضافة إلى إمبراطوريات الثروة والسلطة وتزول أيضا. ولكي يتمتع الإنسان بحياة مرفهة وسعيدة عليه أن يلاحظ ويراقب التغييرات والشواذ الصغيرة في نظام الحياة اليومية التي تمثل بذور التغيير، وبشائر ما سيحدث غدا. وهذا يعني العيش في حالة من الافتقار إلى الأمان والطمأنينة، في حال من المعاناة القاسية بالوحدة والتي في أفضل أحوالها يمكن أن تدفعنا إلى الجديد. أن الكثير من الأمان والاطمئنان ورفض التطور، والقبول بالتغيير ورعايته يؤدي إلى نوع من الموت. إلا أن الكثير من فقدان الأمان والاطمئنان يمكن أن يعني نوعا من الموت كذلك. لكي يكون الشخص إنسانا يعني أن يخلق ما يكفي من النظام بما يمكننا من الانتقال إلى المنطقة التي تفتقر إلى الأمان والتي يبدو أن لا نظام فيها. وبهذه الطريقة نكتشف الجديد.

أما أولئك الذين يمتلكون القدرة على رؤية النظام الجديد وهو يظهر إلى الوجود فإنهم سيُعتبرون مفرطين بالتجديد، ومفرطين في الحداثة والتحرر. لقد تعامل الانفراديون في كل مكان بصرامة بالغة مع الجماعات التي تطالب بالتحرر، أما الرعاة فهم متأكدون دائما من أن الفوضى ستعم إن لم يأخذوا الأمور بحزم. أما الحقيقة فهي أن الرعاة خائفون من فقد السلطة أو مشاركتها

مع غيرهم. وهم أيضا خائفون من التغيير ومن ثم يريدون التحكم بكل شيء. وغالبا ما يصبح الذين يمتلكون القدرة على رؤية قدوم التجديد وحيدين ومُضطَّهدين.

ولكن؛ كيف نتعلم أن نقرأ إشارات التغيير وإلى أين يؤدي هذا التغيير؟. لا نستطيع مع الجديد سوى أن نمد يد العون له لنساعده على التغيير وذلك عندما نمتلك مبادئ معينة واضحة وأكيدة لذلك. وسأذكر خمسة مبادئ ساعدتني على ذلك:

أولاً: كل البشر مقدسون، بغض النظر عن ثقافتهم، أو جنسهم، أو ديانتهم، وبغض النظر عن قدرتهم وعوقهم، وبغض النظر عن نقاط الضعف والقوة فيهم. لكل منا جهاز يضيفه إلى أوركسترا البشرية الكبيرة الواسعة، وكل منا بحاجة إلى العون لنصبح جميعا ما يجب أن نكون عليه.

ثانياً: يمر عالمنا وتمر حياتنا في عملية تغيير جزء من الحياة. إلا أنه ليس من السهل دائما تحديد الصالح من الطالح في شيء يمر في عملية تغيير. كيفية الابقاء على القديم وإدامته وتحضير الطريق للجديد؟ إن المسألة ليست مسألة رفض الماضي ونبذه، بل السماح للماضي أن ينساب ويجري إلى الحاضر، وإن نسمح لهذه العملية أن ترشدنا عن كيفية العيش في المستقبل. أنها عملية محبة كل القيم الأساسية للماضي وبواسطتها نستدل على كيفية عيش هذه القيم في الجديد الحادث. وهذه القيم تتضمن الانفتاح، والحب، والكمال، والاتحاد، والسلام، وقدرة الإنسان الكامنة فيه على الشفاء والإفتداء والخلص، والأهم من كل ذلك ضرورة الغفران، وعليه فإن كل ما يسمح ويشجع جريان ونمو الحياة ضروري.

ثالثا: النضج يأتي من خلال العمل مع الآخرين، بواسطة الحوار، والإحساس بالانتماء، والبحث المشترك والتغيير باتجاه النضج والكمال الأكبر، نحتاج نحن البشر إلى أمان معين، ولن نستطيع أن نخوض في أماكن تفتقر إلى الأمان مع الآخرين باتجاه الجديد إلا بعد تحقيقنا لهذا الأمان.

رابعا: تحتاج الكائنات البشرية إلى التشجيع لتقوم بتقرير خياراتها ولتتحمل مسؤولية حياتها وحياة الآخرين. نحن بحاجة إلى التشجيع لتغيير ونبضج، ونكسر القشرة التي نغلف أنفسنا بها، قشرة التمرکز على الذات، ونخرج من آليات دفاعاتنا، تلك الآليات التي بقدر ما هي ثقيلة الوطأة على نفوس الآخرين هي ثقيلة الوطأة بنفس القدر على نفوسنا نحن كذلك. بتعبير آخر نحتاج نحن البشر إلى أن نتجذر في تربة خصبة لكي ننتج ثمرا صالحا. ولكننا لكي نحقق هذا علينا أن نعرض طوعا للحياة للخطر في سبيل أن نعطي من أنفسنا.

خامسا: لنقوم بمثل تلك الخيارات نحتاج إلى التأمل في الحقيقة والمعنى وإلى أن نبحت ونسعى إليها. الواقع هو المبدأ الأول للحقيقة لنبقى إنسانيين يعني أن نبقى على ارتباط بإنسانيتنا وواقعنا. وهذا يعني أن نهجر الإحساس الذي يغمرنا بالوحدة ذلك الإحساس الذي يجعلنا نتعلق في أوهامنا وأحلامنا وأيديولوجياتنا، خائفين من الواقع، وان نختار من ثم أن نسير باتجاه الارتباط. أن نكون إنسانيين يعني أن نقبل أنفسنا كما نحن، أن نقبل تاريخنا كما هو، وان نقبل الآخرين كما هم. أن نكون إنسانيين يعني أن نقبل التاريخ كما هو وأن نعمل دون خوف في سبيل تحقيق انفتاح أكبر وتحقيق حب أكبر للآخرين. أن نكون إنسانيين يعني أن لا نكون قابلين للانسحاق تحت وطأة ثقل الواقع، أو أن

نزعل من هذا الواقع أو أن نحاول تغييره قسرا إلى ما نعتبره هو الصحيح وما نعتبره ما يجب أن يكون، ويعني أن نكرس أنفسنا كأفراد، وكجنس بشري لتغيير سيكون صالحا وجيدا للجميع.

يحتاج كل واحد منا إلى أن يعمل باحثا عن الحقيقة، وأن لا يخاف من الحقيقة. فنحن بحاجة إلى أن نكافح للعيش في الحقيقة، لأن الحقيقة تحررنا، حتى لو كان ذلك يعني العيش في الوحدة والمعاناة القاسية في لحظات معينة. ربما كان هذا البحث عن الحقيقة عملية نستسلم عن طريقها للحقيقة ونسمح لها أن تغمرنا بدلا من امتلاكها، كما لو أنها شيء سيمكننا امتلاكه، شيء نستخدمه ضد الآخرين.

لن تحررنا الحقيقة إلا إذا سمحنا لها أن تخترق قلوبنا وتمزق الحجاب الذي يعزل بين الرأس و القلب، ليس المهم فقط الربط بين الرأس والقلب، بل من المهم أيضا أن نحب الحقيقة أيضا ونسمح لها أن تلهم حياتنا ومواقفنا وطرق عيشنا. أما حقيقة الدين والأخلاق فتكشف عن نفسها عندما تحررنا وتكسبنا احتراماً وعاطفة عميقة تجاه الآخرين.

هذا البحث عن الحقيقة يتطلب منا انفتاحا، يتطلب تغييرا في طرق التفكير، سواء أكان ذلك بالنسبة للأفراد أو للمجتمع ككل جنبا إلى جنب مع التغيير الحاصل في العالم واكتشافنا لعلاقات صميمية عما هو. فهناك مبادئ لا تتغير، مثل الدعوة لأن يكون الناس محبين وغير حقودين، وتلك مبادئ تحكم حياتنا. نحن؛ بحاجة إلى تكامل خبراتنا في هذه المبادئ ومن ثم نجعل هذه المبادئ تنتور بخبراتنا.

مثل هذا التغيير في التفكير قد يعني البحث والتلمس في الظلام، وفي بعض الأحيان يحمل هذا البحث والتلمس معه المعاناة القاسية، وإعادة التفكير في صياغة الأجوبة صياغة جديدة في كلمات وطرق جديدة. فبإمكان الفلسفة وعلم الأنثروبولوجي واللاهوت وبقية العلوم ان تخبرنا عن معنى أن نكون بشرا، إلا أنه من الخطر ان تتخذ كأيديولوجيات تملي الواقع، وبالأحرى يجب فهم هذه العلوم كوسائل ننصت إليها بتواضع وننظر إلى الواقع باندھاش.

يتوجب علينا أن نحاول العودة إلى الماضي، ثم ننطلق لنخوض خضم المستقبل، اي أن نفهم بعضنا البعض ونفهم ما يعنيه أن نكون بشرا إنسانيين، وأن نفهم ما الذي يجري في العالم، وذلك لكي تكتمل إنسانيتنا أكثر ونعمل من أجل السلام والوحدة. ولن نكتشف المعنى الأساسي للإحساس بالوحدة إلا بعد أن نبدأ بدمج مثل هذا المعنى عن الواقع بصورة أكمل في كياننا، وإلا بعد أن نتعطش لما يعطي معنى لحياتنا، عندها سنكتشف صرخة، وغالبا ما تكون صرخة مؤلمة تحمل معاناة قاسية، صرخة تطلب المزيد من الاحترام والحب تجاه الآخرين، وأن ننغمر أكثر في الحقيقة، متوحدين أكثر وثابتين أكثر في الله. مثل هذه الصرخة يمكن أن تضيء كمالا جديدا للإنسانية.

الجماعة والنظام الصارم

يقودنا البحث المستمر عن المعنى والنظام وعن العلاج المضاد للإحساس بالوحدة إلى ضرورة وجود الجماعة.

توجد عائلات وقبائل ومجموعات بشرية منظمة تنظيماً جميلاً، حيث يبدو النظام المفروض حلاً ناجحاً لفوضى الحياة، في هذه الجماعات يحس كل فرد بأنه محمي لأن الأشخاص جميعاً مرتبطون بعضهم ببعض الآخر. إلا أن هذا النظام الظاهري والشعور بالأمن يمكن أن يكون خطراً، لأنه بالإمكان خنق حرية وفردية الأفراد في مثل هذه الجماعات ومن ثم يمنعون من التغيير.

كلما ذهبنا إلى أفريقيا أصبنا بالاندحاش من الاختلاف الذي تمثله الثقافات الأفريقية مقارنة بالثقافة الغربية. والاختلاف الرئيسي هو المعنى الذي يمثله الترابط الجماعي. فإذا كانت صورة الجماعة الغربية الاندفاع والسرعة والاحتيايل والمدينة التي تعج بنشاط الأفراد المتنافسين، نرى الصورة النقيض في الجماعات الأفريقية حيث القرية التي تمثل التجسيد الملموس للجماعة.

نادراً ما تجد في قرى البلدان الأفريقية التي زرتها أشخاصاً يزرعون تحت وطأة الإحساس بالوحدة. فهم على علاقة حميدة مع بعضهم البعض. وغالباً ما ينام الأطفال مع بعضهم البعض في نفس الغرفة. والساحات تعج بالعمات والأعمام والأخوال وأبناء العمومة والأقارب من كل نوع. وكلهم يرتبطون مع بعضهم البعض بأواصر قوية غالباً ما تكون صارمة وقوية تحت توجيه الشيخ أو مجموعة من الشيوخ.

يحاول كل واحد في مثل هذه البيئة أن يلتزم بالقواعد التزاماً شديداً. ولا يوجد سوى القليل جداً من المجال أمام الفردية أو المبادرات الخلاقة، بل يأخذ كبار أعضاء الجماعة على عاتقهم الوظائف الشخصية التي على شاكلتها البحث

عن فرص العمل للآخرين وترتيب الزيجات. فالانتماء في مثل هذا السياق يعطي كل فرد من أفراد العائلة إحساساً بالأمان والطمأنينة.

قد يكون هناك شيئاً إنسانياً جميلاً في مثل هذه القرى، فلرجال أدوارهم وللنساء أدوارهم، إلا أن الثمن الكبير المدفوع للحفاظ على مثل هذا النظام وهذا الأمان هو الصعوبة العظيمة التي يواجهها الأفراد في تحرير أنفسهم من قبضة الجماعة القوية، وصعوبة تحرير نواتهم الحقيقية العميقة، صعوبة البحث عن الجديد.

وهذا يضعنا أمام تناقض حقيقي: فكبشر نطلب الانتماء، ونحن بحاجة للارتباط مع الآخرين ذلك الارتباط الذي يمنحنا الحماية والأمان إلا أن بإمكان هذا الارتباط أن يمنع الحركة الطبيعية والتغيير الذي نحتاجه في حياتنا، بل وبإمكان هذا الارتباط أن يقف عائقاً في وجه الإبداع ويخنق الإحساس الطبيعي بالوحدة، ذلك الإحساس الذي يدفع بنا لاكتشاف الجديد، والذي يدفعنا إلى القرب من الله. إن هذا الإحساس بالوحدة هو إحساس الفرد الخارج عن الجماعة، والذي ينتهز فرصة البحث عما يمكن أن يكتشف ويعمل خارج إطار المؤلف.

فالتناقض الحقيقي إذاً هو كما يلي: نحن محاصرون كبشر بين دوافع متناقضة، الدافع للانتماء والتلاؤم في ومع شيء أكبر من أنفسنا، والدافع الذي يدفعنا للسماح لأعماق نواتنا بالارتفاع والانكشاف، الدافع الذي يدفعنا لأن نسير لوحدها، أن نرفض المقبول والمريح، وهذا قد يعني، لفترة معينة على الأقل، قبول المعاناة القاسية. ففي الجماعة نكتشف ما نشترك به، وكأفراد نكتشف العلاقة الشخصية مع الله. علينا أن نعثر على طريقة نوازن بها بين هذين الدافعين المتعارضين.

ضعف الطفل

من أين تتبعث الدوافع المتناقضة؟، الحاجة إلى أن يكون المرء هو ذاته
والحاجة إلى انتماء إلى الجماعة؟

لقد حُبل بنا وولدتنا جميعا صغارا وضعافا. ولم يكن بإمكاننا أن نفعل
شيئا. ولقد اعتمدنا كلياً على والدينا في الحصول على الطعام والحماية؛ وكانت
حاجتنا العظمى هي احتضانهم لنا وحمايتنا واستثارة محبتنا. والحب بالنسبة
للکائن البشري مهم كالطعام.

عندما يكون الأطفال محبوبين يعيشون بثقة وتتفتح أجسامهم وقلوبهم
لأولئك الذين يمنحونهم الاحترام والحب، الذين يفهمونهم وينصتون إليهم. ومن
ثم يبدؤون بالازدهار.

فما الذي يحدث عندما يشعر الطفل بأنه غير محبوب وغير مرغوب
فيه؟ لا يوجد شيء يمكن مقارنته بإحساس الوحدة لدى الطفل، هذا الكائن
الهش وعديم الحول، الطفل الوحيد يحس بالخوف، وبمعاناة قاسية، ويحس
بشعور بالذنب. وعندما ينجرح الأطفال في قلوبهم؛ يتعلمون الاختباء وراء
الحواجز لحماية أنفسهم.

الأطفال الوحيدين لا يشعرون أنهم يشتركون بأي شيء مع البالغين.
يكونون قد فقدوا الثقة في أنفسهم، ويتحولون إلى أشخاص مضطربين ومشوشين

ويشعرون بأن لا أحد يفهمهم. ليس بإمكان الأطفال الوحيديين تسمية الألم، فلا يبقى سوى اتهام - الذات.

إلا أن الحياة تريد أن تعاش فنرى الأطفال يعيشون بالرغم من الأوضاع المعادية مثل المرض والبؤس وسوء المعاملة والعنف والإهمال، بإمكان الحياة أن تكون عنيدة ومتشبثة. يتعلم كل الأطفال كيفية إخفاء مشاعرهم الفظيعة خلف جدران داخلية، ووراء المناطق المظلمة من وجودهم وبالإمكان دفن كل ظلام حياتهم وفوضاها هناك. ومن ثم يخوضون حياتهم بحثا عن استحسان الآخرين، والاكتفاء، وبحثا عن الأوهام والأحلام.

يمكن للأذى والألم أن يتحول إلى طاقة تدفع الطفل إلى أمام. بإمكان مثل هؤلاء الأطفال أن يتحولوا إلى أفراد تحميمهم الحواجز التي أقاموها حول تلك الأجزاء القابلة للأذى في نفوسهم، القلوب الجريحة. وكلما قلت جروح الطفل كلما قلت الحواجز التي يقيمها، وكلما كان من الأسهل عليهم العيش في العالم والعمل مع الآخرين، كلما قل انغلاقهم على أنفسهم.

الطفل الوحيد غير قادر على الاتصال مع الآخرين. وفي داخل كل منا يعيش طفل لديه إحساس بالوحدة، طفل مختبئ وراء جدران خلقناها لنتمكن من البقاء. وبالطبع فأنا هنا لا أتكلم سوى عن جانب واحد من الإحساس بالوحدة، ذلك الإحساس بالوحدة الذي بإمكانه أن يدمر جزءا من نفوسنا، ولست بصدد الإحساس بالوحدة الذي يدفع إلى الخلق والإبداع. كيف نستطيع أن نبدأ في العثور على طريقة نتغلب بواسطتها على الميراث الذي يورثنا إياه الإحساس المدمر بالوحدة ؟

لا أستطيع أن أتكلم سوى من موقع خبرتي الشخصية، وعليه لأكلمكم عن كلاوديا.

الحب يحول الفوضى

في عام 1975م، رحبنا بكلاوديا فيما بيننا في جماعة السفينة في سويابا، وهي حي فقير في تيكوشيكاليا في الهندوراس. كانت في السابعة من العمر وكانت عمليا قد أمضت كل حياتها في وحشة وكآبة الملجأ. كانت كلاوديا عمياء خائفة من العلاقات، يملأها ألم داخلي ومعاناة قاسية. ولكي نستخدم عبارة فنية نقول أنها كانت طفلة منكشمة على ذاتها. وكان يبدو أن معاناتها تصاعدت بشكل فظيع عند وصولها إلى المجمع، ربما لأنها بتركها للملجأ فقدت نقاط الاستدلال التي كانت تعتمد عليها، هذا بالإضافة إلى البنية الوجودية التي أعطتها نوعا من الأمان والحماية. كان كل شيء وكل شخص يبعث فيها الخوف، كانت تصرخ ليلا ونهارا. وكانت تلطخ الجدران بغائطها. كانت تبدو مجنونة جنونا تماما، كان الشعور بعدم الأمان يغمرها تماما، وقد تبين أن شخصيتها كانت تتفكك.

كانت كلاوديا تعيش شكلا فظيعا من الجنون، لا يجب أن يفهم أو يُعتبر كمنفذ إلى عالم آخر. ومن خبرتنا الخاصة في السفينة تعلمنا عن الشفاء، بالإضافة إلى ما تعلمناه من العون الذي قدمه الأطباء النفسيون، بأن للفوضى أو " الجنون " معنى، ولهذه الفوضى أو لهذا الجنون مصدر ينبعث

منه، وإن بالإمكان فهمه. إنَّ الجنون إنما هو صرخة مرض كبيرة. إنها طريقة للهروب عندما يصبح إجهاد الوجود في العالم مؤلماً إلى درجة كبيرة جداً. الجنون هروب من المعاناة القاسية، إلا أن الفوضى هذه تحتوي على نظام يمكن من الشفاء، والشفاء هذا لا يمكن تحقيقه إلا بعد العثور على هذا النظام.

بعد عشرين عاماً من وصولها إلى سويابا. قمت بزيارة إلى المجمع وقابلت كلاوديا ثانية، وقد وجدتها في عافية تامة. كانت قد أصبحت امرأة في الثامنة والعشرين من العمر، كانت ما تزال عمياء وما تزال ذاتية ومنسجمة إلى دواخلها ولكنها كانت قد حصلت على سلام داخلي، وقادرة على القيام بأشياء عديدة بين الجماعة. وهي ما تزال تحب أن تترك لوحدها ولكن من الواضح أنها لم تعد شخصاً يحس بالوحدة. فكثيراً ما كانت تغني مع نفسها، وكانت ترتسم على وجهها ابتسامة دائمة.

لقد كانت تتنابها أحياناً بعض نوبات الغضب، وذلك عندما كانت تحس بانعدام الاحترام تجاهها أو عندما كانت توضع في مواقف تُستنزف فيها مشاعر الافتقار للأمان.

في أحد الأيام كنت أجلس قبالتها على مائدة الغداء وقلت:

" كلاوديا، هل تسمحين لي بسؤال ؟ "

فأجابت: " أجل جان. "

قلت: "كلاوديا ما سبب كل سعادتك هذه ؟ "

وكان ردها بسيطاً ومباشراً: " الله. "

وسألت قائد المجموعة " نادين " عن معنى ردها.

قالت نادين: " ذاك سر كلاوديا. "

كان سبب وصول كلاوديا إلى درجة الجنون هو الإحساس بالوحدة وانعدام الأمان. وكانت الجماعة والحب والصدقة هي العوامل التي حققت لها في النهاية السلام الداخلي. بدأ هذا التحول من الفوضى إلى السلام الداخلي، من كره الذات إلى الثقة بالنفس، عندما أدركت كلاوديا بأنها محبوبة.

قدر تعلق الأمر بي هناك سبعة جوانب للحب تبدو ضرورية لتحويل قلوب الأشخاص الذين يحسون بوحدة عميقة مؤذية. وهذه العوامل هي: الكشف، والفهم، والاتصال، والاحتفال، والتفويض والمشاركة مع شخص آخر وأخيراً المغفرة.

الكشف

الكشف هو أول وأهم جوانب الحب. فكما أن الأب والأم يكشفان لأطفالهم بأن لهم قيمة وجمال، كذلك فعل الطبيب المعالج والآخرين ممن عاشوا مع كلاوديا، حيث كشفوا لكلاوديا قيمتها وجمالها. إن الكشف عن جمال شخص ما يعني الكشف عن قيمته بإعطائه الوقت والاهتمام والرقعة. الحب لا يعني أن نقوم بشيء ما للآخرين فحسب بل أن نكشف لهم كونهم أفاضاً فريدين، أن نجعلهم يعلمون بخصوصيتهم واستحقاقهم للاهتمام. بإمكاننا التعبير عن هذا الكشف من خلال وجودنا الصريح والذي يتسم باللطف، بطريقة نظرنا إلى شخص ما واستماعنا إليه، طريقة استماعنا لشخص ما واهتمامنا به. بإمكان الإيماءات والحركات التي تصدر منا أن تكون مليئة بالاحترام الذي يكشف

للآخرين جدارتهم، حتى لو كانت تلك الجدارة تختفي تحت مظاهر الغضب والكراهية والجنون.

هذا الكشف عن قيمة وجدارة الشخص، الكشف الذي بإمكانه أن يشفي، يستغرق وقتاً. فقد استغرق كلاوديا سبع سنين من الطفولة المؤلمة في الملجأ القذر، سبع سنوات من الإحساس بالوحدة والافتقار إلى الحب ومن مشاعر احتقار الذات. كانت كلاوديا قد كونت مناورات وعادات تستند إلى إيمانهم بعدم جدوى حياتها. كان جنونها وصراخها استجابات معقولة تجاه عالم لم يكن أحد فيه يريد لها. وقد استغرق التحويل وقتاً، استغرق وقتاً للتحويل من كراهية الذات إلى الثقة بالنفس ولتأخذ هذه الثقة مكانها وتستقر في نفسها.

من السهل أن يثق المرء بجمال طفل صغير، ولكن كيف نثق بالجمال الخفي الذي تتطوي عليه نفس كلاوديا في حين كان يبدو عليها كل ذلك " الجنون " ! إنه سؤال جوهري، كيف نثق بأن لها قلباً وأن باستطاعتها شيئاً فشيئاً وبالتدريج أن تتقبل الحب، وأن تتحول عن طريق هذا الحب ومن ثمَّ يصبح بإمكانها أن تمنح الحب [للآخرين].

يكمن الإيمان بالجمال الداخلي لكل كائن بشري، في قلب المبدأ الذي تأسست عليه جماعة السفينة وهذا الإيمان موجود في لب كل تعليم وثقافة حقيقية وفي جوهر الكينونة البشرية. وحالما نبدأ بالتفضيل بين الأشخاص والحكم عليهم بدلاً من تقبلهم كما هم . بجمالهم الخفي أحياناً، أو بنقاط الضعف الواضحة فيهم في أحيان أخرى . إنما نقوم حينها باختزال الحياة بدلاً من رعايتها. عندما نكشف للناس إيماننا بهم يرتفع جمالهم الخفي إلى السطح حيث بإمكاننا أن نراه بصورة أفضل.

الفهم

الحب يعني الفهم أيضاً، والفهم هو الجانب الثاني من الحب. كانت كلاوديا بحاجة إلى أن تُفهم. لأنه كيف بالإمكان مد يد العون لها ومساعدتها على العثور على السلام الداخلي ومساعدتها على النمو إن لم يكن بإمكان أحد أن يفهمها؟ لم تكن صرخاتها مجرد دلائل عن انكسارها الداخلي، عن الظلام الداخلي الذي كانت تعيش فيه وعن معاناتها القاسية، بل كانت كذلك طلباً للنجدة والمساعدة. ومهما يكن صعباً قبول هذه الفكرة ومعايشتها، إلا أنني على إيمان تام بأن كل فعل عنف إنما هو رسالة أيضاً تحتاج إلى من يفهمها. يجب عدم الرد على العنف بعنف أكبر بل بفهم حقيقي. علينا أن نسأل من أين يصدر العنف؟ وما الذي يعنيه؟

لنعد إلى كلاوديا مرة ثانية. كانت نادين قائدة الجماعة في سويابا بحاجة إلى عون الأطباء النفسيين وعلماء النفس للعناية بكلاوديا. وفي هذه الحالة وجدت بأن كلاوديا كانت بحاجة إلى الإحساس بالأمان في كنف يوم منتظم المواقيت. وبدأت كلاوديا تتعلم كيف تتحرك الأمور أثناء اليوم وكيف يتوجب عليها أن تستجيب لكل حالة. بدأت تكتشف النظام وتعلمت ما الذي تتوقع، بالإضافة إلى ما كان متوقعا منها. أما المهم في هذا فهو خلق علاقة ثقة مؤسسة على تفهم حاجات كلاوديا.

إن الأطفال الذين من أمثال كلاوديا، والذين يتهربون من العلاقات إلى عالم خاص بهم، والأطفال الغير قادرين على الاتصال اللفظي (بالكلام)؛ هم

بحاجة إلى أن يفهموا بطريقة خاصة. وهذا يستغرق وقتا والكثير من الاهتمام بالإضافة إلى الحكمة ومساعدة الخبراء المحترفين، وذلك لكي نتعلم كيف نؤول صرخاتهم ولغة أجسادهم التي تكشف عن الرغبات والحاجات التي ليس بإمكانهم تسميتها.

الاتصال

الجانب الثالث من جوانب الحب هو الاتصال. والاتصال يقع في قلب الحب. وكما أننا بحاجة إلى أن يفهمنا الآخرون نحن بحاجة كذلك لأن نفهم أنفسنا. ولكي يتحقق لنا ذلك نحن بحاجة إلى من يمد لنا يد العون. والأطفال المضطربين بحاجة إلى من يساعدهم في تشخيص المصدر الذي ينبثق منه اضطرابهم. أما عندما لا يتم تشخيص الأشياء وتسميتها فإن الاضطراب والتشوش يزداد ويتصاعد ومع الاضطراب تأتي المعاناة القاسية.

عندما نشخص شيئاً ما ونسميه يعني أننا نخرجه من بين الفوضى والأنقاض، نخرجه من حالة الارتباك والفوضى ونجعله مفهوماً. فمن الفظاعة عدم التكلم إطلاقاً عن حالات واقعية معينة، مثل الموت، فتبقى مدفونة في النفس عندما لا يتم تسمية هذه الحالات الواقعية، فإنها تستحوذ علينا، وعلى سبيل المثال، لقد كان محرماً على جيل جدتي الكلام عن الجنس، وعليه أصبح للجنس قوة عظيمة متحكمة لأنه كان من المحظور نطق شيء عنه.

عليه فإن باستطاعة الأطفال أن يكتشفوا وبسرعة شيئاً اسمه الحقيقة ؛ وبأنهم لا يعيشون في عالم يتسم بالنفاق والفوضى، ومليء بالكاذيب

والادعاءات الكاذبة وحسب. أما الوالدين الذين يقرون لأطفالهم بأخطائهم ويعتذرون لهم عما صدر عنهم من خطأ وهم في حالة غضب ويطلبون المغفرة منهم فإنهم يسمون الأشياء بأسمائها، أي أنهم يقرون بأنهم ليسوا كاملين. بإمكان الحياة والكلمات أن يجتمعا سوية، وبالفعل تستطيع الكلمة أن تصير جسداً.

لقد تعلمت أن عملية تعليم وتعلم الاتصال هي حركة، إلى أمام وإلى الخلف، فالذي يشفي والذي يُشفى يتبادلان الأمكنة باستمرار، وحالما نبدأ بفهم أنفسنا نفهم بفهم الآخرين. وذلك جزء من عملية التحرك من المثالية إلى الواقعية، من السماء إلى الأرض. نحن لسنا بحاجة إلى أن نكون كاملين ولا أن ننكر عواطفنا.

وهنا أجد حقيقة أصيلة أخرى: لا ينبعث الفهم والحقيقة من العقل فقط بل ومن الجسم أيضاً. عندما نبدأ بالتصمت إلى أجسامنا نبدأ كذلك بالتصمت إلى الواقع من خلال خبراتنا، ونبدأ بأن نثق بحدسنا، نبدأ بالثقة بقلوبنا. فالحقيقة موجودة كذلك في تربة أجسامنا. وعليه فإن المسألة، هي مسألة انتقال من النظريات التي تعلمناها إلى الاستماع إلى الواقع الذي يوجد فينا ويحيط بنا، الحقيقة تنبع من الأرض. وهذا لا يعني نكران الحقيقة التي تصدر عن المعلمين والكتب والتقليد ومن الأسلاف ومن العقيدة الدينية. إلا أن على الحقيقتين أن تتوافقا، على الحقيقة الصادرة من السماء أن تُثبت وتؤكد وتتقوى بالحقيقة الصادرة عن الأرض. علينا أن نتعلم التصمت ومن ثم الاتصال.

الاحتفال

الجانب الرابع من جوانب الحب هو الاحتفال، لا يكفي أن نكشف للناس قيمتهم وجدواهم وأن نُفهمهم ونرعاهم. أن نحب الناس يعني أن نحتفل بهم. كثيرا ما ينظر إلى كلاوديات الأرض وكأنهم مشاكل تحتاج إلى الرعاية من قبل المحترفين، فالناس الذين على شاكلة كلاوديا بحاجة إلى الضحك وبهاجة إلى اللعب، إنهم بحاجة إلى أناس يحتفلون بالحياة معهم ويعبرون عن فرحة وجودهم معهم. إن وجود نادين والبهجة الصادرة عنها ومن الآخرين في سويابا التي أضعفت دفاعات كلاوديا الحصينة، فبدأت شيئا فشيئا تثق بأنها لم تكن سيئة وبأنها قادرة على أن تحب وتُحَب. وعليه ينظر الكثير من الناس إلى مختلف أشكال العوق التي تصيب عائلاتهم باعتبارها مآسي. وهؤلاء تحيط بهم وجوه تعبر عن التعاسة، وأحيانا وجوه مليئة بالشفقة، وأحيانا أخرى بالدموع. إلا أنه يتوجب على كل طفل وكل شخص أن يعرف بأنه مصدر للبهجة، وكل طفل وكل شخص بحاجة إلى الاحتفاء به. ولا يمكن تحويل صورة ذاتنا السلبية المتمزقة إلا بعد أن نتقبل نقاط الضعف فينا كجزء من إنسانيتنا.

التفويض

الجانب الخامس من الحب هو التفويض. إنَّ المسألة ليست مسألة أن نقوم بتقديم الخدمات للآخرين، بل مساعدتهم للقيام بخدمة أنفسهم، ومساعدتهم على اكتشاف معنى حياتهم. العيش معناه التفويض. كان على كلاوديا أن تتعلّم تدريجيا بأنها كانت مسؤولة عن جسمها وعن حياتها وأن لها

سلطة على أفعالها، وان بإمكانها الاختيار من بين البدائل مهما كانت صغيرة. إلا أن هذا الإحساس بالمسؤولية تجاه نفسها رافقته ضرورة أن تتعلم احترام الآخرين. قد عنى التفويض لكلاوديا أن عليها أن تتعلم تكوين تراكيب الجماعة وأن تبذل جهودا لاحترام وحب الآخرين.

يأتي العديد من المساعدين إلى تجمعات " السفينة " لتقديم العون والعيش مع رجال ونساء مصابين بعوق عقلي. يشبه دور المتطوع (أو المساعد)؛ دور القابلة، أن تولد وترعى الحياة، أن تسمح لها بالتطور والنمو وفقا لإيقاعها الطبيعي الخاص بها. المساعدون في السفينة ليس من واجبهم تحويل المعاقين إلى أناس " طبيعيين " بل مساعدتهم على النمو وصولا إلى النضج. وهذا النمو وصولا إلى النضج سيختلف بالنسبة لكل فرد من الأفراد في السفينة. أما دور نادين، بالإضافة إلى دور المساعدة الأخرى، فلم يكن دور التحكم على كلاوديا أو امتلاكها أو برمجةها، بل كان، جعلها تتفتح وتحرر، أن تساعد على النمو وأن تتقبل نفسها كما هي. أما حياة كلاوديا فسر خاص بها.

ما كان بإمكان كلاوديا أن تبدأ بالنمو بزيادة وعيها بالانتماء المشترك والاعتماد المتبادل، تلك العلاقات التي تقع في القلب من مجتمع سويابا *suyapa* والتي هي مرآة لعالم أكبر. وعليه بدأت كلاوديا تكتشف ذلك بينما كانت نادين تبتث حياة جديدة فيها، وفي نفس الوقت كانت كلاوديا تبتث حياة جديدة في نادين. لقد اكتشفنا كيف يسري الحب ليتحول إلى المشاركة، الجانب السادس في الحب.

ان نكون في شراكة

المشاركة ثقة متبادلة، انتماء متبادل، إنها حركة حب، حركة ذهاب وإياب بين شخصين كل منهما يعطي ويتقبل المشاركة ليست حالة ثابتة، إنها حالة واقعية تنمو باستمرار وتتعلم، ويمكن أن تتحول إلى واقع مرير إذا حاول شخص امتلاك الآخر وذلك ليمنع النمو. والمشاركة تطوع وانفتاح متبادلين بين شخص وآخر وهي في حقيقتها تحرر بالنسبة للشخصين كليهما حيث يسمح لكل منهما أن يكون نفسه، حيث أن كليهما مدعوان للنمو داخل مجال أوسع للحرية والانفتاح أمام الآخرين وأمام الكون.

الثقة شكل جميل من أشكال الحب كأسخياء نعطي أموالا أو نقودا أو وقتا أو معرفة. أما بالثقة فنحن نعطي أنفسنا ولكننا لا نستطيع أن نعطي من أنفسنا إلا إذا وثقنا بأن شخصا ما سيرحب بما نعطيه. في أية لحظة تنمو الثقة ؟ كانت هناك لحظة سرية، لم تعرفها سوى كلاوديا، وتلك اللحظة كانت عندما أدركت بأنها كانت محبوبة. وعندما أدركت كلاوديا ذلك دخلت في علاقة انتماء. وقد أحدث انفتاح قلب كلاوديا انفتاحا جديدا في قلب نادين أخرجها من الإحساس الخاص بها بالوحدة. تلك كانت لحظة ولادة المشاركة بينهما.

تكمُن المشاركة في قلب سر إنسانيتنا، وتعني قبول حضور شخص آخر في داخلنا، بالإضافة إلى تقبل الدعوة المتبادلة للدخول داخل شخص آخر. المشاركة، التي تتضمن الأمان وانعدام الأمان المنبعث من القفّة، عبارة عن

كفاح مستمر ضد كل أنواع قوى الخوف والأنانية في داخلنا وضد حاجة الإنسان المتذبذبة ظاهريا في التحكم بشخص آخر.

إلى حد ما نحن نفقد السيطرة على حياتنا عندما تتفتح أمام الآخرين. مشاركة القلوب شيء جميل ولكنه شيء خطر كذلك. أنه جميل لأنه شكل جديد من التحرر، فهو يجعلنا نحس بنوع جديد من البهجة لكوننا تخلصنا من الإحساس بالوحدة ونصبح قريبين حتى ولو كنا على مسافات بعيدة من بعضنا. والمشاركة خطيرة لأن هدم حواجزنا الداخلية يعني أن إلحاق الأذى بنا أصبح سهلا. إن المشاركة تجعلنا عرضة للإيذاء. والله نفسه يكون حاضرا في هذه المشاركة المحررة. ولهذا يكتب القديس يوحنا الإنجيلي في رسالته الأولى:

"فليحب بعضنا بعضا، أيها الأحباء..."

لأن المحبة من الله ...

وكلّ محب مولود من الله ويعرف الله ... " (يوحنا الأولى 4: 7)

المغفرة

هناك جانب سابع وأخير للحب، وهو أخطرها جميعا في كل ما ذكرناه، ذلك هو المغفرة.

لتبدأ رحلتها في الخروج من الفوضى كانت كلاوديا بحاجة إلى حب غير مشروط. إلا أنه ليس بإمكان كائن بشري الاستجابة تماما لتلك الحاجة، فأحيانا كان يمكن للإرهاق أو أي عدد آخر من العوامل أن يجعل استجابة المساعد استجابة منفعة أو غاضبة تجاه كلاوديا. وكان من شأن هذا أن يجرح

قلب كلاوديا. الرابطة بين الناس في الشركة تتضمن أن يغفر أحدنا للآخر وأن يطلب أحدنا المغفرة من الآخر.

كلنا نحمل في دواخلنا إنكساراتنا ومناطق تسودها الظلال والظلام الذي يكتنف زوايا الروح حيث تكمن الأشياء المزعجة. وليس بإمكان الإنسان أن يكون ودودا مجاملا محبا ولطيفا على الدوام. فإذا كان هذا حقيقيا في العالم الكبير، يجب أن يكون أكثر حقيقة في العالم الصغير، عالم " السفينة " حيث إنّ المساعدين، هم أولئك المدعوون إلى مشاركة المعاقين حياتهم، ليسوا دائما من المحترفين المدربين ممن يأتون للعمل ساعات قليلة يوميا، على العكس من ذلك يتحول التزام المساعدين إلى رابطة ندعوها " علاقة عهد " فنحن عندما نعيش ونعمل ونصلي معا نبني نوعا جديدا من العائلة.

كانت تتتاب كلاوديا في فترة وجودها في المجمع وخصوصا في الأيام الأولى نوبات غضب. وكانت هناك أوقات ترفض فيها أية علاقة أو تنظيم، كانت تترك ألمها الداخلي يتحكم بها، كانت تنغلق داخل حاجاتها ورغباتها الخاصة بها. في مثل هذه الأوقات كانت بحاجة إلى أن تواجه بحزم، من قبل شخص حازم يمنعها من الهرب إلى داخل معاناتها القاسية، إلى داخل إحساسها بالوحدة، أو إلى حماقاتها. ولكن كلاوديا ما كانت لتسمح بهذا إلا إذا شعرت باحترام وإلا إذا شعرت أن بإمكانها اللجوء إلى ذلك الشخص طلبا للعون والحماية. والسلطة التي لا تستند على هذه الثقة الأصلية، وخضوع المقادون وفقا لذلك، لا يمكن سوى أن تكون قمعية ومدمرة للحرية الشخصية. فلا يمكن سوى لسلطة مبنية على الثقة أن تسمح بنمو السلام والحرية الداخليين. ولكي تنمو بسلام باتجاه النضج الأنثوي كانت كلاوديا بحاجة لا إلى تقبل عماها

الجسماني تدريجيا، بل وأيضا اكتئابها وغضبها الداخليين، وانجراحاتها، بل وحتى جروحها المفتوحة، تلك التي تولدت من احساساتها بأنها مرفوضة، وافتقارها إلى الحب والفهم أثناء سني حياتها في الملجأ. كان من المهم على كلاوديا أن تكتشف مناطق الظل في داخلها، حتى وإن لم يكن بإمكانها تسميتها، وأن تتعلم بأن من المقبول أن لا يكون المرء كاملا وتاما. وكانت نادين هي المسؤولة عن تعريف كلاوديا بأننا نخضع جميعا لقانون أسمى وأكثر أصالة، قانون لا نصنعه بل يُعطى لنا، قانون يكمن مختفيا في قلب كائن بشري، وأن تكشف لها أن مهمة الحياة هي النمو وأن من الممكن لكل منا أن يتغير ويخرج من الظلام والفوضى إلى النور وإلى نظام جديد من الحب. وعليه كان نمو كلاوديا خاضعا لنمو نادين. كيف كان بإمكان نادين أن تتقبل كلاوديا بكل فوضاها وجنونها إذا كانت قد رفضت تقبل كل جوانب الفوضى ومناطق الظلال في حياتها هي؟.. كيف كان بإمكانها أن تثق بنمو كلاوديا دون الثقة بنموها هي؟. كانت هناك في حالة كلاوديا، منطقة ظهر فيها كل هذا الصراع الروحي والنمو في الصلاة.

الصلاة

معا

الصلاة بالنسبة لمعظم الناس تشترط ضرورة الخروج من الآم ومباهج الحياة اليومية. ونحن بحاجة إلى هذا الخروج، وخصوصا من المصاعب والصراعات، مبتعدين عنها بعض الشيء لننظر إلى الأشياء ليس بمنظوراتنا

المتركزة على الذات فحسب، بل من منظور الرؤية والبحث المشترك. وتلك الرؤية ضرورية لخلق مكان الحب والانتماء. الصلاة هي الوقت الذي نسمح فيه للنور أن يدخل إلى حياتنا، وحرافيا أن " يُنورنا يوميا " .

حياتنا اليومية في السفينة مليئة بالكثير، لدينا الكثير مما يتوجب عمله ولدينا القليل من الوقت. نريد فسحة من الوقت نستطيع خلالها أن نستعيد أحداث يومنا، كما حدثت. نحن بحاجة إلى وقت ننصت فيه إلى الصوت الداخلي فينا، صوت الأمل الذي يدعونا للعودة إلى أساسيات الحب، تلك الأساسيات التي قد نكون نسيناها في إنشغالاتنا وأنانيتنا. فالصلاة إذن إنصات أكثر مما هي كلام. أن تصلي يعني أن تكون في مركز الحب، الصلاة تعني السماع لما هو موجود في أعماق أعماقنا، أن يخرج إلى السطح. أما بالنسبة لي فهو كل ذلك وأكثر. والصلاة هي لقاء مع الواحد الذي يحبني، ذاك الذي يكشف لي قيمتي السرية، ذاك الذي يفوضني لأمنح الحياة، الذي يحبنا جميعا، والذي يدعونا جميعا إلى المزيد من الحب والعاطفة. الصلاة هي الراحة في الهدوء، حضور الله المتسم باللطف.

تجتمع الجماعة في الهندوراس كل مساء للصلاة معا، صلاة بسيطة هي صلاة ثقة وحب، تدعو روح الله أن تزور كل شخص. وقد دخلت كلاوديا بحرية وسهولة في وقت الصلاة هذا فاتحة قلبها لله. في وقت الصلاة وأمام الله كانت نادين وكلاوديا وكل الآخرين يقفون على قدم المساواة. كان بإمكان كل منهم أن يطلب الغفران عن قسوة قلوبهم، كان بإمكان كل منهم أن يشكر النعمة، نعمة الحب والحياة التي خبروها، وكان بإمكان كل منهم أن يطلب القوة للخلاص من أنانيته والتخلص منها.

وحالما بدأت كلاوديا تثق بأنها كانت محبوبة ليس من قبل نادين فحسب بل ومن قبل الله أيضا، أصبح من الأسهل لها أن تجاوب نفسها، أصبح من الأسهل عليها أن تصدق إمكانية النمو في الحب والرعاية، تجاه الله وتجاه الآخرين، وأن بإمكانها هي أيضا أن تمنح الحياة للآخرين. وهكذا توصلت تدريجيا إلى معنى لحياتها. فقد جاءت هي أيضا من الله، إله محبة، وكانت في طريقها إلى الله. فالمسيرة خلال الحياة تكتسب المعنى من خلال الحب.

يبدو الإحساس بالوحدة خبرة إنسانية جوهرية، والمسألة ليست أن يكون الشخص لوحدته. فليس الإحساس بالوحدة أن يكون المرء بمفرده لا رفيق له. باستطاعتنا أن نكون وحيدين ومع ذلك نكون سعداء، لأننا نعرف بأننا جزء من عائلة، من جماعة، بل وجزء من الكون نفسه. الإحساس بالوحدة هو شعور بعدم كون المرء جزء من شيء، أن يكون مقطوعا. شعور أن المرء لا جدوى له، شعور بعدم القدرة على التلاؤم في مواجهة كون يبدو وكأنه يعمل ضدنا.

إن الإحساس بالوحدة وشعور الإنسان أنه مذنب. بأي ذنب؟.. ذنب الوجود؟.. ذنب الدينونة؟.. من قبل من؟.. لا نعرف الإحساس بالوحدة مذاق الموت. العديد من الناس الذين تغمرهم الفوضى حُبل بهم وولدوا في الفوضى. لقد عرفوا القليل من الطيبة والكثير من الكراهية وسوء المعاملة. ولأنهم لم يتعرفوا على الحب إطلاقا، يظلون غير قادرين على منح الحب. وكما كانوا مغمورين في عصر سابق في الفوضى لا يستطيعون اليوم سوى أن ينقلون الفوضى. والحب، مثل الخوف والكراهية، يمكن أن ينتقل من جيل إلى جيل.

هل يعني هذا أن لا مفر من الفوضى، وأنّ الألم والكراهية في العالم سببها جميعا إفتقار الوالدين إلى القدرة على حب أطفالهم حبا غير مشروط؟.

هل مكتوب علينا جميعا أن نعاني من القمع والصراع وبالنتيجة من الفوضى ؟. لقد سبق لجان بول سارتر أن قال أن الحب ليس سوى وهم. هل كان على حق ؟.

أنا مؤمن بالإضافة إلى أن خبرتي برهنت لي على وجود طريق، ذلك هو موضوع هذا الكتاب. إلا أن طريق الخروج هذا يتطلب منا جميعا أن نكتشف جمالنا الجوهري باعتبارنا كائنات بشرية . قدرتنا على إعطاء الحياة وتقبلها من الآخرين. الكثير مما قلته في هذا الفصل يتكلم عن الفرد و عما بإمكان الفرد أن يقوم به. ولكن ماذا عن الصورة الأكبر؟. هل يوجد حل اجتماعي وسياسي ؟ ما هي الجماعة التي نريد ؟.

لدي عدة مبادئ. تحتوي الجماعة التي تشجعنا على كسر قشرة الأنانية والتركيز على الذات على بذور مجتمع يتصف الناس فيه بالنزاهة، والصدق والحب. ليس بإمكان مجتمع أن يؤدي وظيفته إلا إذا أهتم المعنيون بتلك الوظيفة، وهو ليس اهتماما بحاجاتهم الخاصة بهم أو حاجات من يحيط بهم مباشرة فحسب، بل أن يهتموا جميعا بحاجات الكل، يعني: الاهتمام بالصالح العام وعائلة الأمم. أنا مؤمن بأن كل واحد منا يسير في رحلة نحو هذا الانفتاح حيث نُخاطر بأن نُحب.

النمو باتجاه الانفتاح يعني الحوار والثقة بالآخرين والاستماع إليهم، وخصوصا أولئك الذين يقولون أشياء لا نحب الإصغاء إليها، والكلام المشترك المتبادل عن حاجاتنا المشتركة وكيف بإمكاننا أن ننمو لنتحول إلى أشياء جديدة. تولد الجماعة الصالحة عندما يبدأ الأشخاص بالثقة ببعضهم البعض، بالمشاركة مع بعضهم البعض، والشعور بالاهتمام ببعضهم البعض.

الفصل التالي يعني بالانتماء؛ الحاجة الأساسية في أن نكون وأن نشترك مع الآخرين، فقلب الإنسان مركز للحرية. قد نكون ملزمين باتباع القانون ولكننا لسنا ملزمين بأن نحب، لأن " الحب الحقيقي ينبذ الخوف ". أما مجتمعنا فينمو بالحق والسلام عندما نسمح لطاقت الحب والرعاية والاهتمام بالجميع أن تتعرض في دواخلنا.

الفصل الثاني

الانتماء

تطرق الفصل الأول إلى الإحساس بالوحدة، الخواء الذي نحس به عندما نكون معزولين في وحدة تامة موحشة. يحتاج الشخص الإنساني إلى حاجة أساسية واحدة على الأقل ألا وهي الحاجة إلى إيمان وثقة شخص إنساني واحد على الأقل به. ولكن ذلك لا يكفي أبداً، لأن المشكلة لا تتوقف هناك. ففي كل منا حاجة إلى الانتماء ليس إلى شخص واحد فقط بل إلى عائلة، أصدقاء، مجموعة وإلى ثقافة، وعليه سنخصص هذا الفصل للانتماء.

الانتماء مهم لكي ننمو باتجاه الاستقلال، بل وأبعد من ذلك، أنه مهم لنموننا باتجاه حريتنا الداخلية ونضجنا. ولن يكون بإمكاننا أن نكسر القشرة التي نغلف أنفسنا بها، قشرة الفردانية والتمركز على الذات، تلك القشرة التي تحميها وتعزلنا في نفس الوقت، إلا من خلال الانتماء. بالرغم من ذلك ينطوي الدافع الإنساني إلى الانتماء على مثالبه أيضاً.

في قلوبنا حاجة فطرية للتماثل مع الجماعة، سواء أكان ذلك سعياً للحصول على الحماية أو الحصول على الأمان والطمأنينة، لنكتشف ونؤكد هويتنا، ولنستخدم الجماعة لإثبات جدارتنا وطيبتنا، بل وحتى للبرهنة على أننا أفضل من الآخرين. وأنا أو من [جازما] بأن الأساس في جذور الصراع

الإنساني ليس دينيا أو ثقافيا، بل طريقة استخدام الجماعات للدين والثقافة ليهيمن أحدها على الآخر. وأسارع فأضيف أنه لو لم يكن الدين والثقافة التي يستخدمها الناس كعصي يضربون بها أحدهم الآخر لبدا هذا الدين وهذه الثقافة بمظهر آخر.

هل الشر متأصل جذريا في الكائن الإنساني؟ لقد توصل الفيلسوف الفرنسي جان بول سارتر إلى أن الحب ليس سوى حرية واحد من الأشخاص تقوم بالتهامه حرية شخص آخر فهل نحن مدعوون جميعا لأن نعيش ونموت في صراع لا ينتهي؟ ثم هل أن كل صفات الكرم والنبيل فينا ليست سوى حاجات تغطي حاجتنا إلى التفوق على الآخرين؟.

ويقودني سارتر إلى نقطتي الرئيسية: ما هو أصل الحاجة إلى الانتماء؟ هل هي مجرد طريقة التعامل مع الإحساس الشخصي بفقدان الأمان، والمشاركة في الشعور بالهوية الذي توفره الجماعة. أم أن هذا الإحساس بالانتماء جزء مهم من رحلة كل شخص إلى الحرية؟ هل الإحساس بالانتماء مماثل للأرض نفسها، وسط مغذي يسمح للنباتات والأشجار بالنمو ومشاركة الكل بأزهارها وثمارها؟.

المجموعة هي التعبير الظاهري لهذه الحاجة إلى الانتماء. إلا أن بإمكان المجموعة أن تتغلق على نفسها مؤمنة بأنها متفوقة على الآخرين. أعتقد أن الانتماء يجب أن يكون في قلب كل اكتشاف، وإننا جميعا ننتمي إلى جنس مشترك، هو الجنس البشري. قد نكون متجذرين في عائلة معينة أو في ثقافة معينة ولكننا نأتي إلى هذه الأرض لننتفح أمام الآخرين، لنخدمهم ونقبل منهم العطايا التي يجلبونها لنا، وإلى الإنسانية جميعا.

في عام 1986 أسست " السفينة " مجموعة من الجماعات في بيت عنيا في الضفة الغربية، على بعد أميال قليلة من القدس. وكان بيتنا يقع في منطقة أهلها من الفلسطينيين، قريبا من جامع. وكان كل جيراننا من الإسلام كما كان الأمر مع مالكي البيت، علي وفاطمة، وكانا يعيشان في الطابق العلوي، وقد بذلا كل ما بوسعهما لتوفير الراحة لنا. وقد استقبلت مرشدتي مجموعة السفينة: ماري أنطوانيت ؛ وكاثي؛ شابتين رولا وغدير، وعدد آخر من المعوقين في المحلة.

عندما قمت بزيارة الجماعة الصغيرة أفتتنتُ بجمال غدير. كانت تعاني من الشلل المخي وكانت تفتقر إلى القدرة على الكلام. إلا أنها كانت تستقبلني كلما زرتها بابتسامتها وثقتها وعينيها البراققتين. كانت " تتكلم " من خلال جسمها كلاما فاتنا جدا. وقد تأثرت جدا بالألم الدفين في قلب والدة رولا. كانت رولا تعاني معاناة فظيعة وكانت أحيانا تستمر في الصراخ لساعات وما كانت دموع أمها تختلف عن دموع أي أم مسيحية كانت، أم يهودية.

نحن البشر متساوون في جوهرنا. وننتمي جميعا إلى إنسانية منكسرة واحدة. نحن جميعا مصابون بانجراحات ولنا قلوب كليمة. وكل منا بحاجة إلى الشعور بتقدير الآخرين وفهمهم له، ونحن جميعا بحاجة إلى العون. من خلال رولا وغدير إنكشفت لي حاجة الضعفاء إلى تلك القوة الخفية التي يجب أن تلامس قلوبنا ومن ثم تجعل انتماءنا متبادلا بغض النظر عن الدين والثقافة.

يتشابه الناس المعاقين فكريا إلى درجة كبيرة جدا، أينما وجدوا. ونتيجة لضعفهم الواضح المكشوف غالبا ما يستجيبون إلى الحب، حب يكشف لهم قيمتهم، حب يفهم. وهم من جهتهم يشع منهم نوع من السلام والطمأنينة يجذب

الآخرين إليهم من خلال الحب والثقة. ولم يتم قبول جماعتنا في جوار بيت عنيا إلا بسبب غدير ورولا والآخرين.

وكثيرا ما عرجت إلى القدس التي لا تبعد سوى أميال قليلة خلال جولاتي المتعددة إلى الجماعة. لم يكن بإمكان معظم اليهود فهم رغبتني في العيش مع الفلسطينيين حيث كنت أسأل " أَلَسْتَ في خطر؟ " ولم يكن أصدقاءنا الفلسطينيين أيضا سعداء لاتصالنا باليهود. كان من الصعب عليهما رؤية الجمال المخفي تحت عباءة الاختلاف الديني والاختلاف الثقافي. وبالفعل فإن ردود فعل أصدقائنا الذين زرناهم تختلف عن ردود فعل معظمنا تجاه أشخاص ينتمون إلى جماعات أخرى. فنحن نحكم عليهم وفقا لمخاوفنا وتعصباتنا وتحاملاتنا.

أتذكر عطلة نهاية أسبوع في أوتاوا في السبعينات عندما ساعدت في تنظيم اجتماع مع رجال مسجونين، مجموعة من نزلاء سجون سابقين و مجرمين من مرتكبي أعمال اعتداء، وحراس سجن، وشرطة، وكهنة سجون ومدراء سجون وعلماء نفس. ولقد اشتركنا معا، أكلنا معا، ونمنا في الردهات ولم يكن أي منا يحمل عنوانا أو إشارة تدل إلى أي فئة ينتمي. لقد عشنا معا كأشخاص وليس كممثلين لجماعات. لقد كانت، إن صح القول صورة عبرت لي عن كيفية تصرفنا تجاه بعضنا البعض عندما لا توجد هناك " علامات " تخبرنا عما يتوجب علينا شعوره تجاه شخص ما. وكانت إشارة صغيرة تدل عما يمكن أن تبدو عليه الجماعة، وكيف يكون أداؤها لو تمكنا من التغلب على تعصباتنا وتحاملاتنا وآراءنا المسبقة عن أنفسنا وعن الآخرين.

يُولد وهم التفوق الحاجة إلى البرهنة عليه، وهكذا يُولد القمع. أخبرني أسقف في أفريقيا بأنه أقام أكبر كاتدرائية في المنطقة بالرغم من قلة عدد المسيحيين الموجودين هناك، قياساً إلى الأديان الأخرى، وكل ذلك للبرهنة على أن المسيحية أفضل وأقوى. وكذلك بنى جدراناً حول جماعتنا وعلى مثل هذه الجدران تنمو التعصبات.

كيف وصلنا، نحن الجنس البشري إلى هذا الحال الذي لا نبرر فيه تقسيم أنفسنا إلى جماعات فحسب، بل ونجعل كل جماعة تقف ضد الأخرى وكل جار يعادي الجار المجاور له، لا لشيء سوى لتأسيس وهم سطحي تافه بالتفوق!.

إحدى المهمات الأساسية أمام الناس هي التقصي عن طرق تقويض هذه الجدران التي تفصلنا عن بعضنا البعض، ومعرفة كيف نفتح أهدنا على الآخر، وكيف نخلق الثقة والمكان الذي نتحاور فيه.

عودة إلى الطفل

تمثل حياتنا لغزاً من النمو من ضعف إلى ضعف، من ضعف الطفل الصغير إلى ضعف الشيخ العجوز، وخلال حياة كل منا نحن معرضون للإرهاك، والمرض، والحوادث. ويكمن الضعف في قلب كل واحد منا. ويصبح الضعف تربة خصبة للفوضى والاضطراب إذا رُفضنا بسبب ضعفنا ؛ ويصبح تربة حقيقية للسلام والفرح إذا قُبِلنا وأنصتَ إلينا، وكنا موضع حب وتقدير.

يثير الضعف السخط عند بعض الناس، فيضطربون لسماع بكاء طفل، ويوقظ الضعف فيهم قسوة القلب والغضب. وينفس الخطورة، وإن كان ملحوظا بصورة أقل، يدفع الحب بعض الناس إلى الحب التملكي، إلا أن بإمكان الضعف أن يفتح قلوبنا للعاطفة، ومكاناً لاهتمامنا بنمو وعافية الضعيف.

إن نكران الضعف كجزء من الحياة يعني نكران الموت، ذلك لأن الضعف يخبرنا عن الضعف الأكبر النهائي، ذلكم هو ضعف الموت نفسه. صغر الحجم، المرض، السير نحو الموت، إنما هي مراحل التدرج نحو الضعف، ونراها مضادة للحياة ولذلك ننكرها. فإذا أنكروا ضعفنا وواقعية الموت، وإذا أردنا أن نكون أقوىاء متسلطين دائما، فإنما نحن ننكر جزءا من كينونتنا ونعيش في وهم. أن نكون بشرا يستوجب أن نقبل ما نحن عليه، هذا المزيج من القوة والضعف كوننا بشراً يعني أن نقبل الآخرين ونحبهم كما هم. أن نكون بشرا يعني أن نرتبط معا كل بنقاط ضعفه وقوته، لأننا نحتاج بعضنا البعض. فالضعف مُدركا ومقبولا ومعروضا للآخرين موجود في قلب الانتماء، وهو على هذا الأساس موجود في قلب المشاركة مع الآخر.

يحمل الضعف في داخله سرا من القوة. أن الصراخ والثقة التي تنبعث من الضعف يمكنها أن تفتح القلوب، الأضعف يمكن أن يستدعي قوى الحب في الشخص الأقوى. هل يستجيب الأشخاص الأقوى استجابة حب لأنهم بصورة لا واعية يتعرفون على هوية الضعيف؟ هل يعلمون، بطريقة ما، بأنهم في يوم ما سيكونون ضعفاء ويصرخون طالبين العون، طالبين الاعتراف بهم، طالبين الحب!.

إن الانتماء واقع جميل ولكنه مريع. في كل علاقة هناك أوقات ضيق وأوقات نعيم، وذلك عندما يستدعي الناس ما هو الأجل في كل منهم، فيكتشفون بهجة الحركة من حالة الشعور بالوحدة إلى الانتماء إلى المجموع، بهجة العطاء والأخذ، وكل يشعر بمقدار معين من الامتلاء الحياتي.

وعلى أية حال هناك أيضا أوقات الظلام والكآبة. في كل منا جانب تكتفه الظلال، التي تكشف عن نفسها بين الحين والآخر في وعينا من خلال الغضب، والاحباط، أو الكآبة، من خلال رفض الانتماء، لأن الانتماء يبدو شيئا يحطم الحرية. في هذا الحال بإمكان الانتماء أن يكون مؤلما.

يمثل الحبل بالطفل وولادته استيقاظا جديدا للقلب لأنه توسعه. يدعى الوالدين إلى النمو في حب وانفتاح أرحب، وإلى العطاء من نفسيهما. يتمثل الجانب الجميل من الانتماء في كيفية استدعائه للأثمن في قلب الإنسان.

والانتماء جميل بنفس المقدار بالنسبة للطفلة لأنها تعلم بأنها محبوبة وأنها تولد البهجة لدى والديها. جسمها، نموها، تغذيتها، لغتها وأمانها، كلها تتولد من الانتماء. ومن خلال هذا النوع من الانتماء تبدأ باكتشاف نفسها وما مطلوب منها أن تصبحه. وبناء على ذلك فإن الانتماء مدرسة للحب نتعلم فيها الانفتاح على الآخرين والعالم من حولنا، حيث إن كل شخص ومخلوق وشيء في عالمنا مهم ومحترم.

فنحن لا نكتشف من نحن، ولا نصل إلى إنسانيتنا الحقيقية، ونحن في حالة انزواء. ولكننا نكتشف ذلك من خلال الاعتماد المتبادل في الضعف، والتعلم من خلال الانتماء.

فرح وألم الانتماء

تعلمت على مر السنين كيف تتكون الشخصية وصفات الشخصية. تعلمت أثناء السنين المبكرة. في لحظات معينة من الطفولة تكتشف الطفلة كيف يفتقر الوالدان إلى الحب، وحاجتهما إلى التحكم والاستحواذ، وأحيانا عنفهما وسوء معاملتهما ومن خلال أحاسيسها الداخلية بالاكنتاب والغضب والتمرد تكتشف بأن الانتماء صعب بل وواقع خطر.

تشبه هذه اللحظات طعنات خنجر في القلب، وتصل بالطفل إلى حالة من الاضطراب والمعاناة القاسية لأنها ضعيفة، عديمة الحول، وتفتقر إلى القدرة على الدفاع عن نفسها، وربما لا تستطيع أن تفهم ما يحدث، وربما لا يكون بإمكانها التعبير عن غضبها. فيكون عليها أن تكبته؛ تدفعه بعيدا في أعماق وجودها السرية.

فهذه الذات اللاواعية، هي نفسها المنطقة التي تكتنفها الظلال وحيث يتطور الظلام الداخلي في نفس كل واحد منا. فإذا كان شعور الأطفال بالانتماء والضعف مكانا لتطويعهم، وسحقهم فحسب بدلا من أن يكون مكانا لقوة الحب الرابطة، مكانا يسمح لهم بأن يكونوا هم أنفسهم، عندئذ ينعدم وجود الحب بالنسبة إليهم. ولا يكون الحب سوى سراياً يقودهم إلى تدمير حريتهم الشخصية وأعمق أعماق وجودهم. وهذا هو الذي يعنيه سارتر بقوله أن الحب ليس سوى

قضما لحرية شخص من قبل شخص آخر. فالمشاركة والثقة لا تصبحان هنا دليلا على الوفرة بل افتقارا إلى الهوية، علامة للضعف، دليلا إلى عدم القدرة على الوجود وتحمل الشخص لمسؤولية حياته. وفي هذا السياق يصبح الوجود هو القوة والدفاع عن النفس والجبروت في غابة الحياة، و يتم تجنب الحب والضعف والانتماء.

اختبار هذا الألم يدفع الأطفال، وخصوصا عند مرحلة البلوغ، إلى تكوين هويتهم الخاصة بهم، ليحصلوا على استقلالهم عن والديهم. إلا أن بإمكان هذا الألم أن يدفع الأطفال إلى التطابق والخوف من أن يكونوا ما هم عليه والخوف من التعبير عن أهمهم. كل الجمال، وكل الألم، الذي يختبره الأطفال يؤثر على تطورهم وعلاقاتهم مع الآخرين. ويكُون خصائص وصفات شخصياتهم. الانتماء يعني العائلة. فإذا كان الوالدان قد شجعا روح المبادرة والنمو في طريق الحرية، ويكون الأطفال قد أنصتوا وساعدوا في صنع القرارات الخاصة بهم، وتعلموا أن يتقبلوا الآخرين ويحترمونهم ويفتحون عليهم، لو علموا أن الحياة أخذ وعطاء مع الآخرين، سيكون بإمكان هؤلاء الأطفال فيما بعد أن يعيشوا أشكالاً أخرى من الانتماء والنمو وصولاً إلى مرحلة النضج بسهولة أكبر. وسيكونون أكثر انفتاحاً تجاه الآخرين لأنهم عاشوا الثقة وشركة القلب.

المشاركة هي الحب كأخذ وعطاء والثقة هي التي تربطنا معاً، وتربط الأطفال مع والديهم، وتربط المريض بالمرضة، وتربط الطفل مع المعلم، وتربط الزوج بالزوجة، وتربط بين الأصدقاء، وتربط الناس بواجباتهم العامة. والثقة تتبع من المعرفة الحدسية أننا في أمان بين يدي الآخر وان بإمكاننا أن نفتح أمام الآخرين وأن نكون عرضة مكشوفين بعضنا على بعض. المشاركة ليست حالة

سكونية، وإنما واقع متغير. والثقة مدعوة باستمرار للنمو والتعمق، وإلا فإنها تجرح وتؤدي إلى الانكماش. أنها ثقة لا تؤدي إلى امتلاك الآخر لك أو سحقه إياك، بل تؤدي إلى الفرح بمواهبك وتدعوك إلى النمو وإلى الحرية. ومثل هذه الثقة تدعو الثقة التي في داخلك للإعلان عن نفسها.

إنّ الضعيف الذي يعيش في مشاركة حقيقية مع شخص آخر، لن يرى ضعفه وكأنه شيء يُدان، كشيء سلبي، لكنه سيحس بأنه محترم وله مكان. وعليه فبإمكان الانتماء أن يكون مكانا للانفتاح بالإضافة إلى إمكانية كونه مكاناً نكتشف فيه كل الأشياء التي تكون شخصيتنا: العائلة، الثقافة، اللغة، الرجولة، الأنوثة، كيفية التعامل مع أجسامنا، كيفية الاتصال، كيف نحب ونحترم الآخرين. في قلب الانتماء تكمن حقيقة كوننا أخذنا وجودنا من الآخرين وكوننا بحاجة إلى التطور، كأفراد، ماديًا، سايكولوجيًا، وإنسانيًا. لنفكر في الجماعة المحيطة بالطفل، كالعشيرة. والبيئة الأقرب كالقرية. فالانتماء لا يوجد في العائلة والعشيرة فحسب، بل في المدرسة كذلك، حيث يشارك الطفل في حياة القرية ويكتشف معنى أوسع للانتماء مع الآخرين من نفس المدينة، المنطقة، الثقافة، الدين، واللغة. فأحيانًا يلتقي الطفل في القرية أشخاصًا مختلفين: غرباء، مهاجرين، أناسًا معاقين، أشخاصًا من مجاميع اجتماعية أو تقاليد دينية أخرى. وسيلتقط بسرعة من البالغين مواقف تقرر قبول وحب هؤلاء الأشخاص ككائنات بشرية أو

مواقف تجاهل هؤلاء الغرباء بل وتجنبهم، كأناس لا ينتمون. وهكذا نتعلم أن نميز هؤلاء المختلفين كمقبولين أو خطرين.

عندما يكتسب طفل ما لغة، ويتعلم كيف يرتبط بالبالغين، ومع أئداده، ومع الله. عندما يتعلم العادات والقيم التي تتناقلها ثقافته، وكيف يتعامل مع الألم، والكارثة، والموت، لا بديل له عن التفكير بأن ما حسبه هو طريقة الحياة والوجود الوحيدة. وإذا سمح للشك بالتسلل إلى الداخل، فإن نظام حياته الداخلي بمجمله سوف ينهار. وعليه فإننا نتعلم منذ بداية الحياة بأن هناك طريقاً صحيحاً وطريقاً خطأً في عمل كل الأشياء. نحن لا نسأل، بل نطبع أو نغامر بالسقوط في الفوضى. وعندما نتدرج في مراحل النمو إلى المراهقة والبلوغ، نبدأ بوضع القيم التي تعلمناها خلال طفولتنا تحت المجهر. ذلك هو سبب أزمة الإيمان والثقة التي يمر المراهق بها.

المكان الصعب للضعفاء

يجد الضعفاء صعوبة عظيمة في العثور على مكانهم في مجتمعنا. حيث تسيطر صورة الإنسان المثالي باعتباره الإنسان المقدر والمتمكن من حرمان كبير السن، المريض، والأقل قدرة وقابلية، من حقوقه المشروعة. في تصوري ان الجماعة، من خلال التعارف، تضمن حاجات ومواهب كل أعضاءها. كيف نستطيع أن نرعى صنع مجتمع ودي تتفتح فيه حقوق الإنسان

وتراعى، في حين أننا نبعد منهجيا بالقيم التي نعلمها وترعاها قطاعات وشرائح من سكان هذه الجماعة.

وأؤمن أيضا بأن لدى المعاقين الذين يُبعدون غالبا عن حياة الجماعة الاعتيادية؛ دروسا أصيلة وعميقة يعلّمونها لنا. وعندما نضمهم إلى مجتمعنا يضيفون غنى جديدا إلى حياتنا ويضيفون الكثير الجم إلى عالمنا.

ان مجتمعنا موجه للنمو، والتطور والتقدم والحياة، وبالنسبة لمعظمنا نحن في سباق يجب أن نفوز فيه. أما العائلات فدورها تطويري في سن معينة، يشجع الأطفال على ترك البيت، الزواج، إنجاب أطفال خاصين بهم، والتحرك إلى أمام في حياتهم. إلا أن الناس المعاقين محرومون من هكذا مستقبل، وحالما يصلون إلى مستوى معين من التطور، لا يتوقع منهم أي تطور ولا يُشجعون عليه حيث لا توجد " ترقية " للمعوق، وما متاح لهم من حركة إلى أمام ؛ غالبا ما تكون أما خاطئة أو يُعمل على تسريعها بشكل فظ. وهناك العديدون ممن ينتقلون بسرعة كبيرة من الطفولة إلى البلوغ دون المرور في مرحلة المراهقة، وهناك من يشيخ بسرعة. إلا أن مجتمعنا غير مستعد للتلاؤم جيدا مع أناس أضعف أو أبطأ، والأهم نحن غير متمرسين في الإنصات إلى حكمة الناس الذين تختلف أنماط حياتهم عن النماذج والمعايير الاجتماعية السائدة.

هناك افتقار للتزامن بين مجتمعنا والمعوقين من أعضائه ويصبح ضروريا على مجتمع لا يبجل سوى القوي أو الذكي والمنتصر أن يقلل من قيمة الضعيف. وكأنه يقول: الإنسانية هي القوة.

إنّ الذين يرون القلب مكانا للضعف وحسب، سيخافون من قلوبهم. والقلوب بالنسبة لهؤلاء مكان للألم والمعاناة، مكان للفوضى والعواطف المتقلبة.

وعليه يرفضون الذين يعيشون جوهريا من خلال قلوبهم ممن ليس بإمكانهم توليد نفس القدرات الفكرية والعقلية كالآخرين. وهكذا يتم استبعاد الناس المعوقين فكريا، ولم يكن في النية أبدا ضمهم على قدم المساواة مع الأقوياء، ضمهم إلينا أنا وأنت.

تتبع أفكارنا من الجماعة وتستند منظوماتنا العقائدية إلى خبراتنا الأساسية عن الحياة، الموت، الفرح والمعاناة. فإذا لم نكن قد سبق لنا وأن اخترنا حبا مُحررا، فكيف يكون في مقدورنا أن نتكلم عن الحب باعتباره شيئا ثمينا؟ وإذا كانت رحلتنا في الحياة رحلة صراع وقوة، فإن صورة الشخص المثالي في أذهاننا ستكون صورة شخص يفوز في الصراع ويستطيع أن يجعل القوة مطواعة بين يديه.

تاريخ عالمنا هو تاريخ صراعات، مجموعة تستعرض قوتها على الأخرى. أما الضعف فيكمن في قلب الحاجة إلى الانتماء، الضعف الذي نخافه لأننا سبق أن ألحق بنا الأذى. ولذلك نتجمع في مجاميع لنتشارك في قوتنا الجماعية وبكل سهولة يتولد الصراع من هذا. كل مجموعة تحس بالأمان في يقينياتها وأيديولوجياتها. ومن هنا لا تفصلنا عن اللامبالاة، والاحتقار والشك سوى خطوة صغيرة، الخوف من الآخرين وكرههم.

كل الصراعات بين المجموعات تنطوي على ثلاثة عناصر.

أولا: اليقين بأن المجموعة التي تنتمي إليها متفوقة أخلاقيا، بل وربما تكون مُختارة من الله. فعلى كل الآخرين أن يتبعون خطانا أو أن يكونوا في خدمتنا ولكي يحل السلام في العالم، علينا أن نفرض معتقداتنا على الآخرين، بالتطويع، القوة، التخويف، إذا دعت الضرورة.

ثانياً: الرفض أو الافتقار إلى قدرة رؤية أية إمكانية للأخطاء والمثالب في مجموعتنا، أو الاعتراف بها. أن طبيعتنا الخيرة التي لا يمكن نكرانها تجعلنا نظن أنفسنا منزهين عن الخطأ ولا يمكن أن يوجد أي خلل فينا.

ثالثاً: رفض تصديق إمكانية وجود مجموعة أخرى يمكن أن تمتلك الحقيقة أو يمكن أن تساهم في أي شيء مهم. وفي أفضل الأحوال يمكن النظر إلى الآخرين. كجهلاء غير متورين، ولا يمتلكون سوى أنصاف الحقائق، وفي أسوأ الأحوال يُنظر إليهم كمدمرين، خطرين، تملكهم أرواح شريرة، أي هم بحاجة إلى أن يُهيم عليهم لصالح الإنسانية. وعلى هذا الأساس تنقسم الجماعات والثقافات إلى "صالحة" و "طالحة"، والصالحة تعزي لنفسها رسالة الخلاص، والشفاء وإحلال السلام في عالم شرير، وذلك لشروطها وقوتها التحكمية المتسلطة.

تلكم هي قصة كل الحضارات عبر العصور في انتشارها على الأرض بالغزو والاستعمار. فالاختلافات يجب أن تقمع، و " المتوحشون " يجب أن يُخضعوا للتحضر. علينا أن نبرهن بكل الوسائل الممكنة بأن ثقافتنا، وقوتنا ومعرفتنا وتقنيتنا هي الأفضل، أن نبرهن أن آلهتنا هي الآلهة الوحيدة!.

أنها ليست قصة الحضارة وحسب بل وقصة كل الحروب الدينية، ومحاكم التفتيش، ورقابة المنع، والدكتاتوريات. و لأنها تعتبر نفسها حقيقية حقيقة مطلقة، ستستلزم هذه الأفكار والقيم الايديولوجية أن تُفرض على الآخرين فرضا إن لم يتم قبولها طوعاً.

بإمكان النظام السياسي أن يكون أيديولوجيا. وكذلك مدرسة علم النفس، وكذلك الفلسفة الاقتصادية. حتى مكان العمل يمكن أن يكون أيديولوجيا.

والمجموعات الدينية الفرعية، والشيع تستند على أسس أيديولوجية. والأديان نفسها يمكن أن تتحول إلى أيديولوجيات. والمحكومين بالأيديولوجية .
الدوغمائيين . بطبيعتهم والمنغلقيين تجاه الأفكار الجديدة بل وحتى تجاه المناظرات، يرفضون قبول كل واقع الآخرين أو حتى الاستماع إليهم. يرفضون الإقرار بأي إمكانية خطأ أو حتى انتقاد يوجه إلى نظامهم؟ أنهم منغلقون في مجموعة الأفكار والنظريات والقيم التي اعتقدوا بها.

يجد البشر إذن، سهولة كبيرة في العيش في الأوهام، في حماية صورتنا الذاتية بالقوة، وفي تبرير هذه الصورة بالاعتقاد بأننا مختاروا الله.

وهذا ليس مجرد تاريخ ماض، إنه عالمنا اليوم. ... الإبادة في راوندا، والصراع في يوغسلافيا السابقة، وأساليب معاملة الرجال والنساء البغيضة بسبب معتقداتهم، وطريقة إزاحة الضعفاء، والمعوقين من معادلة الحياة، كلها دلائل على هذه الحاجة في فرض مقولة أن مجموعة على حق والأخرى على باطل.

ما أصعب انتقال الكائن البشري من الاعتراف بالقيمة العليا للثقافة الخاصة به وطريقة حياته إلى قبول قيم ثقافات شعوب أخرى وطرق عيش أخرى. ان هذه الانتقالة تتضمن وجود ضعف في يقينياتنا وهويتنا، وانتقال الوعي وخفض الأسوار الدفاعية.

يبدو اكتشاف إنسانيتنا المشتركة التي تقف تحت اختلافاتنا خطرة بالنسبة للكثيرين. فهذا لا يعني أنه يتوجب علينا أن نتخلى عن بعض من قوتنا، امتيازاتنا، وصورتنا عن ذاتنا فحسب، بل وتعني أيضا بأنه يتوجب علينا أن ننظر إلى الجانب المعتم في نفوسنا، أن ننظر إلى الانكسار، بل وإلى الشر الذي تتطوي عليه قلوبنا وثقافتنا، إنه يعني الدخول في نوع من فقدان الأمان.

انكسار انتماؤنا

أعتقد أن الشعور بفقدان الأمان موجود في الانقسامات البشرية الكبرى، كذلك الحاجة إلى الانتماء والحاجة إلى التفرد الشخصي، شخصي حقيقي، ممتلئ بالحياة. في إرضاء الحاجة إلى الانتماء كنوع من تسليم الذات إلى المجموع، الجماعة والثقافة التي توفر مجموعة من الحقائق المنزلة. إلا أننا إذا أردنا الغوص في مزيد من البحث عن الإمضاء الإنساني والحرية الداخلية يستوجب علينا أن نتفحص يقينيات المجموع، بل وحتى تعريضها للشك والمخاطرة بالوقوف ضدها.

إن ما أدعوه بمبدأ فقدان الأمان يظهر أكثر ما يظهر عندما نتصرف كأفراد، عندما نفتح الطريق لأعماق نفوسنا بالنهوض: نختار أن نعيش قدرا معيناً من فقدان الأمان ونعرض الأشياء التي يعتقد بصحتها للمساءلة والفحص والشك. إلا أنني أعتقد بأن التعرض لفقدان الأمان بهذا الشكل هو أيضاً امتياز معين لصالح الجماعة، حيث يصبح بالإمكان النظر إلى الأشياء التي يعتز بها، وتفحصها وتعريضها للشك وتعميقها، حيث من الأفضل اكتشاف الحقائق الكامنة هناك لننظر إلى هذا الأمر بتفصيل أكبر.

لا تزال العائلة، والقرية، والقبيلة قوية في الكثير من دول العالم، ويشعر الناس في هذه التنظيمات الاجتماعية أنهم مرتبطون ببعضهم البعض. هذا الارتباط يمنح الأمان، وتعرف الناس ماذا تفعل وبماذا تعتقد. وفيها يمتلك

الشيوخ أو الرعاة قوة وسلطة حقيقيين. فإذا تمرض أحدهم تتم العناية به. إلا أن هناك مساوئ تتعلق بمثل هذا الارتباط القوي، حيث يضحى أعضاء الجماعة بوعيهم الفردي وحريتهم على مذبح الأمان والوحدة، مذبح الارتباط. قد يولد التسليم بهذا الألم لدى البعض، خصوصا الشباب والناس الطموحين، ممن لا يرغب في الاستعباد لتقاليد قديمة وللفقير الجماعي الذي يغمر العديد من هذه الجماعات. تحثنا إنسانيتنا على تحرير أنفسنا مما نحس به من انتماء قمعي. نريد أن نعثر على الحرية إلا أننا نريدها حرية ضمن هيكل من نوع ما.

تمثل العائلة ضمن الجنس البشري الوحدة الاجتماعية الأساسية. إلا أننا أينما نظرنا نجد أن هذه الوحدة الأساسية كمكان للانتماء تتهاوى. لآخذ البلد الذي أعيش فيه كمثل، فرنسا، في باريس تنتهي زيجة من كل زوجتين بالطلاق وفي باقي فرنسا تنتهي زيجة من كل ثلاث زيجات بالطلاق. وتدل الإحصائيات في كل مكان على ازدياد عدد الخائفين من الالتزامات.

ولماذا يحدث هذا؟ أنا مؤمن بأن السبب في ذلك يعود إلى أن مجتمعاتنا الغربية قد وضعت قوة، وحقوق، وحاجات الفرد فوق قوة وحقوق وحاجات المجموع. لقد طورنا مجتمعات تستند إلى مبدأ التنافس، على الناس أن يجتهدون في سبيل النجاح. وفي سياق معين قد يكون هذا صحيحا، وخصوصا لأن بإمكان المجموع أن يخنق الوعي والحرية الشخصية، بالإضافة إلى قدرته على خنق تطور المواهب والقابليات الفردية. التنافس يزيد من قدراتنا ولكن تركيزه على القيم والحقوق الفردية يمكن أن يدفعنا إلى شعور فظيع بالوحدة.

هذا هو الإحساس بالوحدة الذي يمكن أن يؤدي ببعض الناس، خصوصا أولئك الذين يشعرون بالعجز عن الحياة في عالم تنافسي، أو من لم

ينتم انتماء حقيقيا إلى عائلة، إلى أعماق اليأس، حيث يفقدون إحساسهم بالذات والمعنى. إنه مكان فقدان الأمان إلى أقصى حد، فقدان الأمان في أقصى جوانبه السلبية.

إلا أن هذا الإحساس بالوحدة يمكن أن يؤدي بنا إلى البحث عن طرق جديدة للانتماء، في أماكن تُساعد فيها على الحصول على معنى لحياتنا، أماكن يمكن أن نعيش فيها مثاليتنا، حيث يمكن أن نختبر ارتباطا حقيقيا مع الآخرين. وبنفس الطريقة، بإمكان هذا الإحساس بالوحدة أن يؤدي بنا إلى البحث عن طرق جديدة لتحقيق سلام وعدالة أعظم لمجتمعنا، أن نكافح مع ومن أجل المسحوقين، ليجدوا لهم مكانا ملائما في الجماعة. هذا هو الإحساس بالوحدة الذي يمكن أن يدفع البعض إلى البحث عن طرق جديدة لشفاء منكسري القلوب ولأولئك الذين يصرخون من الألم، ويدفع آخرين للبحث عن الحقيقة وإيجاد علاقة جديدة مع الله.

تواجه الجماعة التي تستند على مقولة داروين " البقاء للأصلح "، حيث نكافح جميعنا كل عن نفسه، نقاط ضعف جديدة. حيث أن مثل هذه الجماعة تشجع على تكوّن موقف عدواني قوي وحاجة إلى الفوز. وبإمكان هذا أن يشل تطور القلب، ويمنع قيام تعاون صحي بين الناس، هذا بالإضافة إلى أنه يشجع على التنافس العدائي والعداوة بين الأفراد. وهذه الجماعة تميل إلى تهميش الضعفاء بل وحتى تهميش أولئك الذين يرفضون المبادئ الفردية ممن يريد أن يعيش في ومن أجل مجتمع يستند إلى الحق والعدالة للجميع. من المهم أن يكون المرء موضع إعجاب في مجتمع يشجع أخلاقيات الاقتصاد، الفوز، والقوة. و من أن تتلاشى من مجتمع كهذا أخلاقيات العدالة والتضامن والتعاون

والصالح العام بسرعة لتقبع في خلفية اللوحة. فكل ما يهم هو النجاح الفردي. فكيف بإمكان الجماعات الغربية تشجيع تطور الحرية والوعي الشخصي والإبداع وتساعدنا في نفس الوقت لئلا نكون ضحايا التحريصات ومواقف التمرکز على الذات؟ وكيف نستطيع توجيه تطور الفرد باتجاه فعل العدل والكفاح من أجل السلام، ومساعدة الآخرين لتطوير مواهبهم ليجدوا مكانهم في الجماعة؟.

الانتماء

الذي يؤدي إلى الانغلاق

أعتقد أن الجواب على هذه الأسئلة يكمن في طريقة إعادتنا تعيين مكان الفرد بين المجموع ومكان المجموعة بين المجموعات الأخرى. كمجتمع لا مفر لنا من الإقرار بوجود مصاعب معينة نواجهها عندما نضع الفرد في المركز، حيث يهيمن نوع معين من الأنانية، أنانية ترضي حاجات المجموع الكلي بشكل سيئ.

بالإضافة إلى أننا بحاجة إلى أن نجد طريقا نلتقي به حول مشكلة المجموع نفسه، مشكلة التنافس التي يبدو أن المجموعات تولدها كنتيجة لطبيعتها. أذ من السهل الانجراف في عملية جعل الجماعة التي ينتمي المرء إليها جماعة مثالية هي وكل يقينياتها. من السهل في ضعفنا أن ننقل المسؤولية الأخلاقية الفردية إلى المسؤولية الأخلاقية الجماعية.

إلا أنني مؤمن بوجود دلائل ومفاتيح موزعة هنا وهناك تدلنا على كيفية إعادة صياغة مفهوم الجماعة بطريقة تسمح بتطوير الوعي الشخصي والحرية

الداخلية. وبهذه الطريقة نرتقي أكثر إلى إنسانيتنا، ونمتلئ بالحياة أكثر، الفرد المتعافي داخل المجموع المتعافي.

يدلنا تاريخ الحضارة كيف يكون بإمكان الرجال والنساء ممن يريدون تكريس أنفسهم للدين والثقافة، والمثالية الاجتماعية أن يتربطوا معا ليعيشوا رؤاهم ويكوّنوا البنى الضرورية لما يريدون فعله، ولتبادل الرعاية والدعم. لقد ظهرت مثل هذه المجموعات الصغيرة في أحضان الديانات الكبرى، حيث يجذب الناس إلى بعضهم البعض لتحقيق هدف مشترك. وهذا هو الذي نحاول تحقيقه في " السفينة " ونحن نقوم بتشكيل مجتمعات صغيرة على حجم العائلة. وهو الذي أمّل العديدون في ثقافتنا الغربية وسعوا إلى تحقيقه في الستينات والسبعينات.

لأعطيك بعض الأمثلة عما اعتبره مجموعات متعافية تعيش روح المخاطرة، والمغامرة، والشجاعة، والانفتاح، في ظل ظروف اختاروها عن سابق قصد وتصميم. أنهم يعيشون في ما أدعوه روح فقدان الأمان، وقبضة مستقبل مجهول متخذين موقف التساؤل الصادق.

أزور بانتظام في فرنسا ديراً مغلقاً يضم 23 امرأة من الشابات والعجائز. فلقد اجتمعوا معا بحثاً عن الله، لأن يكرسن حياتهن ويصلين من أجل من يعاني في العالم. إنهن يعشن حياة الفقر الشديد ويعملن بكد وجهد، والحياة منظمة تنظيمًا صارماً، إلا أنهن سعيدات جداً. إنهن يغنين ويضحكن بسهولة. وأجدهن يتمتعن بحرية وانفتاح كبير في قلوبهن وعقولهن، وذلك بالرغم من أن ديرهن مغلق. لقد وجدوا الأمان في عيشهن المشترك، إلا أن كل واحدة منهن تعيش شعوراً شخصياً بانعدام الأمان.

ليس من السهل إطلاقا البحث عن الله، أن يكون المرء صادقا في حياة الجماعة، وأن يقبل الآخرين كما هم، أن يغفر دائما وباستمرار، من دون أن يختفي وراء حواجز داخلية.

دُعيت قبل سنوات قليلة لزيارة مجموعة " شعب يسوع " يعيشون في منطقة منبوذة في مدينة من المدن الأمريكية. وعندما وصلت إلى البناية الكبيرة، التي كانت في السابق فندقا، حيث يعيش جميع أعضاء المجموعة، وجدتهم مجموعة مكونة من حوالي 200 عضو من الرجال والنساء، يرتدون ملابس بسيطة وفقيرة، وكان عددا قليلا منهم من جماعة " البنكس " ذوي الشعور المصبوغة، وبعد أن أمضيت وقتا معهم، اكتشفت أنهم يقدمون يوميا وجبات مجانية لما يقارب من الـ 300 شخص من المنبوذين. ولقد اكتشفت كذلك أن العديد من الأعضاء كان قد عانى الكثير من السجن والمخدرات، وقد سألت أحد قادتهم عن طبيعة علاقتهم مع الكنائس الرئيسية في المدينة، فأخبرني بأن أحدا لا يريد قبولهم.

لقد وجدت تلك المجموعة التي قد يطلق عليها البعض صفة " طائفة " مجموعة جميلة جدا، وقد فوجئت بانفتاحهم. ولقد تأثرت كثيرا بطريقة مساعدتهم للعديد من الرجال والنساء ليرتقوا إلى إنسانيتهم الحقيقية.

كانت تلك الجماعة تعيش مثاليات وأهداف مشتركة، وقد رحبوا بفقدان الأمان الذي يتعرضون له لأنهم احتضنوا فقدان الأمان الذي يعيشه المنبوذون الذين كانوا يقدمون لهم خدماتهم. ويُرجح أن احتضانهم للتغيير وانفتاحهم كانت ترعاه المعارضة التي كانوا يواجهونها.

بشكل ما يمكن أن نقول عن هاتين المجموعتين " شعب يسوع " في الولايات المتحدة " والدير المغلق " في فرنسا، بأنهما مجموعتان مغلقتان. وبالرغم من شدة الاختلاف بينهما، إحداهما تتجه إلى الداخل إلى حياة التأمل، والأخرى تتجه إلى الخارج إلى حياة الخدمة، وهم منغلَقون بما يكفي لتوفير الكفاية من الأمان لأعضائهم ليتمكن هؤلاء من العيش مع فقدان الأمان في الحب، والانفتاح والتعاطف مع الآخرين.

إلا أن الجماعات التي تبدأ كأماكن صحية للانتماء، يمكن أن تصبح شديدة الانغلاق، غنية، ونخبوية. ما هذا الجوع إلى القوة الذي تكتسبه المجموعات بسرعة كبيرة جدا؟ يجتمع الأعضاء مع بعضهم البعض ليؤكدوا قيم بعضهم البعض. تستطيع الجماعات أن تتحول إلى ما يشبه النوادي، أماكن لتهنئة الذات والإطراء، ونماذج قدوة للأشخاص متوسطي المقدرة. وبدلاً من الانفتاح على الآخرين، تتغلق مثل هذه الجماعات على نفسها. وهذا يؤدي إلى قتل الروح وموتها.

أحيانا يكون الانغلاق ضروريا، وخصوصا في المراحل الابتدائية. فعلى سبيل المثال كانت بعض مجموعات السفينة مغلقة لأنها استقبلت معاقين كانت حياتهم ممزقة تمزيقا تاما وتفقر إلى الانتظام انقارا مطلقا، أناسا تسكنهم معاناة قاسية، وظلام وتشوش واضطراب جعل المستحيل إجراء أي حوار معهم. في البداية كان من الواجب إخبارهم وبصراحة عما يجب عليهم فعله وأحيانا كان الأمر يحتاج إلى فرض عقوبات، وطالما أنهم لم يسبق لهم وأن عوملوا باحترام وثقة، فكيف نتوقع منهم بالمقابل أن يمتلكوا الثقة والاحترام في أنفسهم وفي الآخرين؟.

لا تؤسس المجموعات المغلقة في الحلقات الدينية والعلاجية فحسب بل تؤسس كذلك في العالم السياسي، في المؤسسات العسكرية، في الشركات المتعددة الجنسية، في المستشفيات، في المدارس وكل تلك الأماكن التي يعمل الناس فيها معا ، يُتوقع من الأفراد في العديد من التنظيمات أن يسيروا على خط معين، وهناك معايير تحكم السلوكيات. لكل تجمع ناجح لأشخاص يشتركون في هدف معين، مجموعة مغلقة من المبادئ والرؤى والنص الرسالي. وأحيانا يمتلك التجمع أيديولوجيا. في ظل هذه الأنظمة يُدفع بالأشخاص إلى عدم التفكير كثيرا في أنفسهم. ومثل هذه الأنظمة تدفع إلى الطاعة، والتماسك، والكفارة، وهم موجهون للحصول على القوة وتجهيزاتها لتحقيق الرسالة، رسالة تكون إما إنسانية، أو تجارية. تصر مثل هذه المجموعات التي أصبحت نوعا من الوحدة الأساسية في مجتمعنا، على الانتماء والتماسك، ووحدة المجموعة أكثر من تأكيدها على نمو أعضائها من الأفراد لتحقيق التحرر الداخلي أو خدمة الآخرين. وينظر بشك إلى الخارجين عن المجموعة، وإلى من يعترضون على السلطة إلى المساءلة.

ربما كانت أكثر النماذج تطرفا للفئات المنغلقة هي ما نطلق عليه اسم الطوائف، بدءا تكون الطوائف مغرية وجذابة للأشخاص الذين يحسون بوحدة شديدة موحشة والأشخاص الذين يفتقرون إلى الأمان، إلا أن هؤلاء الأشخاص حالما يتخلون عن حريتهم وضميرهم، يعانون من الخوف الفظيع عند التفكير في ترك المجموعة. لأن بالإمكان أن يقعوا ضحية إحساس أضع بالوحدة وافتقار أكبر للأمان ومعاناة أكبر، خارج المجموعة.

لقد ذكرت الطوائف، أنه في حين أن معظمنا يمقت بشدة الظواهر الواضحة التطرف، إلا أننا قد نكون عميانا تجاه طوائف الجماعة الحميدة، غير الضارة. على سبيل المثال يمكن لأماكن عملنا أن تصبح طائفية، حيث يتوجب علينا أن نضحي بضمائرننا في سبيل الحفاظ على عملنا، وللحصول على راتب جيد، والحصول على قدر من الأمان. نحن بحاجة إلى أن نكون حذرين من أية حالة يكون من الضروري علينا فيها أن نطيع طاعة عمياء. فالتصلب، مطلب للتماثل والتطابق الأيديولوجي مع المجموع، ونادرا ما يكون ضروريا هنا، ولا أعتقد أن ذلك من دلائل المجموعة المتعافية. ليس ذلك فقط بل وأن الثمن الذي ندفعه كمجتمع في قمع نمو الفرد وتردي قدرة الإبداع الفردية، ثمن باهظ جدا.

الانتماء نمو باتجاه النضج والحرية

تكشف الفردانية عن نفسها في فعل الأشياء فرديا، وفي الاهتمام بالمصلحة الفردية والمجد الشخصي فقط، والنمو من أجل الاستقلال الذاتي الفردي، الجدارة والأهلية، والقوة، إنما هي الأطروحة المضادة للانتماء. مثل هذه الفردانية يمكن أن تولد من السخط على انتماء قمعى أو ضد مطلب التطابق مع مجموعة شديدة التصلب. وقد تتولد من الرغبة في المزيد من توكيد الذات ومن الرغبة في توسيع وتطوير الوعي الفردي الكامن للشخص. وقد تتولد نتيجة

حاجة المرء إلى تحرير نفسه من كل سلطة ومن كل قانون ليحصل على المزيد من القوة والثروة. من السهل نسيان أن الإحساس بالانتماء وسيط ضروري بين الفرد والجماعة. وهو قبل كل شيء ضروري لمساعدتنا في نمونا باتجاه النضج والحرية.

الانتماء هو نقطة ارتكاز الفرد بين الذات والجماعة. إنه الصخرة التي نقف عليها بأمان، عارفين من نحن، وبأننا نستطيع أن ننمو داخلها باكتشافنا الواقعيات الأخرى المولودة والمتطورة في مجموعات وثقافات أخرى.

الجماعة هي المكان الذي نتعلم فيه تطوير قدراتنا الكامنة لنصبح كفوئين، حيث نعمل ونتسلم راتباً يسمح لنا بأن نستقل اقتصادياً. إنّه مكان يستطيع كل منا أن ينجز فيه مهمته، أن يعمل من أجل العدالة، أن يكافح من أجل السلام، وأن يخدم الآخرين. ومن جهة أخرى الانتماء هو مكان نستطيع أن نجد فيه أماناً عاطفياً معيّناً. أنه مكان نتعلم فيه الكثير: عن أنفسنا، عن مخاوفنا، عن الحvarsات التي نتعرض لها، وعن العنف فينا، بالإضافة إلى أننا نتعلم الكثير عن قدرتنا على منح الحياة. إنه المكان الذي ننمو فيه لنتعلم كيف نُقدّر الآخرين، كيف نعيش معهم، كيف نتقاسم الحياة ونعمل معاً، مكتشفين مواهب كل واحد منا ونقاط ضعفه.

يحترم أحدنا الآخر عندما نكون في الانتماء الصحيح. فنعمل معاً، ونتعامل بطرق وأساليب صالحة، ننصت إلى بعضنا البعض. ونتعلم كيف نحل الصراعات التي تتولد عندما يسعى شخص ما إلى الهيمنة على شخص آخر. في الانتماء الحقيقي يتم احترام أولئك الذين يمتلكون ألد الأدنى من المعرفة التقليدية، ممن يبدو أنهم بلا حول، أما الذين يمتلكون قدرات مختلفة فيُحترمون

ويُستمع لهم. في الانتماء إن كان انتماءً جيداً، حيث لا تفرض القوة من فوق، بل يسعى كل الأعضاء إلى العمل كجسد واحد، يعني أننا ننظر ونرى بعضنا البعض كأشخاص وليس كعجلة مسننة في آلة. ننتفتح ونتفاعل مع بعضنا البعض ليتشارك الجميع في صنع القرارات.

ليس من السهل إقامة هذا النوع من التعاون. فنمو المرء إلى أن يصل إلى النضج القلبي يستغرق وقتاً. والانتماء يستخرج الأجل في قدرتنا على الحب وقبول الآخرين، إلا أن بإمكان الانتماء أن يوقظ الغضب، الغيرة، العنف ورفض التعاون أيضاً. هذا النضج قد يعني، في لحظات معينة، وجوب ممارسة السلطة بحزم. فنتعلم قليلاً، قليلاً أن نعيش ونعمل مع الآخرين خصوصاً إذا كنا تحت إرشاد حسن، ونتعلم أن نكسر قشرة الأنانية والتمركز على الذات حيث نبحث عن الشهرة والبرهنة على خيرنا وصلاحتنا، وحكمتنا وقوتنا ونخرج منها. نحن نستلم ونعطي نبضات الحياة. يشبه الأمر صقل الماس باحتكاكه ببعضه. يتوجب علينا جميعاً أن نكتشف وجود آخرين مثلنا يمتلكون مواهب واحتياجات، ليس أي واحد منا مركز العالم. نحن جزء صغير لكنه جزء مهم من كوننا، فلكل واحد منا دور يلعبه، وكل منا بحاجة إلى الآخر.

ولأننا ننتمي إلى الآخرين وننظر إليهم كاخوة وأخوات في الإنسانية نتعلم لا أن نقبلهم كما هم، بمواهب وقابليات مختلفة، فحسب، بل نتعلم أيضاً أن نرى كلاً منهم كشخص يمتلك قلباً حساساً مرهفاً قابلاً للإنجراح. نتعلم أن نغفر للذين يلحقون بنا الأذى. نتعلم أن نتقبل بتواضع ونقبل الناس الذين يؤشرون أخطاءنا وأغلطنا والذين يدعوننا لننمو في الحق والمحبة. نحن نساند ونشجع أحدهنا الآخر في الرحلة نحو الحرية الداخلية. نتعلم كيف نكون أصدقاء صميميين لمن

هم أضعف وأرهف حساسية منا، أولئك قد يكونون مرضى أو يمرون بأزمات أو مفجوعين. وبقبولنا لحدودنا الشخصية ونقاط ضعفنا، نكتشف حاجتنا للآخرين ونتعلم تقدير الآخرين وبذل الشكر لهم.

فالانتماء، إذن مكان ننمو فيه لنبلغ درجة النضج ونكتشف معنى الإنسانية والتصرف بإنسانيتنا. وهو مكان نحتاجه لنعيش ونتصرف في الجماعة وفقاً لمعايير العدل والحق دون السعي وراء الحصول على القوة والامتيازات والشرف من أجل المجد الذاتي. أنه مكان نتعلم فيه التواضع والجرأة في آن واحد معاً، ونتعلم الأخذ بزمام المبادرة في عملنا مع الآخرين. انه المكان الذي منه ترتفع أعماقنا الذاتية وتتكشف أمام وعينا، وبذلك تتأكد ذواتنا أكثر، ونرتقي بإنسانيتنا أكثر.

لليهود إحساس بالانتماء المنغلق. وهذا هو الأمر الذي دعا النبي إشعيا إلى أن يصرخ عالياً، عندما رأى شعبه ذاهبين إلى المذبح للصوم وتقديم الأضاحي ولكن دون أن يفتحوا للذين يعيشون في الضائقة والتعاسة ويقول:

" فالصوم الذي أريده أن تُحل فيود الظلم... وثقك مرابط النيرِ ويُطَلَق
الْمُنْسَجِقُونَ أَحْرَاراً... وَيَنْزِعُ كُلُّ نَيْرٍ عَنْهُمْ أَنْ تَفْرَشَ لِلْبَاجِعِ خَبْزَكَ... وَتَدْخُلَ
الْمَسْكِينِ الطَّرِيقَ بَيْتِكَ... أَنْ تَدْرِيَ الْعَرَبِيَّانِ فَتُكْسُوهُ... " (إشعيا 58: 6 - 7)

الانفتاح للضعيف والمحتاج في مجموعتنا يساعد على فتح قلوبنا أمام الآخرين من الضعفاء والمحتاجين في المجموعة الأكبر من الإنسانية. انها

الدليل الأول على عافية المجموع. إذ إن ارتباطا صحيا يقودنا إلى حب أعظم للآخرين.

أما الدليل الثاني على الانتماء المتعافي هو بساطة وتواضع الحياة التي تعيشها المجموعة في أداء رسالتها خدمة للآخرين، وأن لا تستخدم الآخرين مستغلة إياهم ولا تطوعهم لتعظيم وتبجيل اسمها. أنها لا تفرض رؤيتها على الآخرين بل تفضل الاستماع إلى ما يقولون وكيف يعيشون وتنتظر لتكتشف فيهم كل ما هو إيجابي، وهي تساعد الآخرين على اتخاذ قراراتهم، وتفوضهم سلطاتها. أما عندما تكون الجماعة منغلقة وخائفة من الحوار الحقيقي حيث يُحترم كل شخص، فإنما ذلك دليل على الموت لا على الحياة. وحالما نبدأ برؤية مواهب الآخرين، نتحرك خارجين من وراء جدران اليقين الذي عزّلنا وراءه، وهذا هو الدليل الثالث على عافية المجموعة.

قبل قرون قليلة مضت، كانت كنائس مسيحية تحارب بعضها البعض. كانت لاهوتياتها مصممة للبرهنة على صحة هذه وخطأ تلك. أما اليوم، فبدلاً من التركيز على ما يمكن أن يفرقنا، سواء أكانت كنائسنا أو ثقافات، فنحن نبحث عما يمكن أن يوحدنا. لقد بدأنا نكتشف مواهب بعضنا البعض وبدأنا ندرك بأن الشرع المهم لكل واحد منا هو في الحب والعطاء.

أما الدليل الرابع على عافية المجموعة هو البحث عن التغيير وإدراك أخطاء الماضي، أن تكتشف المجموعة أخطاءها وتبحث عن عون وخبرة أشخاص من خارج المجموعة للمزيد من الحق والمحبة، وأكثر احتراماً للاختلاف، وأكثر استماعاً وانفتاحاً لطريقة ممارسة السلطة. أما المجموعة التي

ترفض الإقرار بأخطائها وترفض السعي للحصول على حكمة الآخرين،
إنما تخاطر في الوقوع أسيرة الانغلاق على نفسها وراء جدران " التفوق " .

باعترادي، أن المجموعات التي تتطور كاشفة عن هذه الدلائل الأربعة،
إنما هي مجموعات متعافية، وهي تساعد أعضائها على التحرر من الأنانية
المتأصلة فينا جميعا والنمو لتحقيق نضج أكبر وحرية داخلية أعظم. إنها تكشف
إنسانيتنا المشتركة، تسمح لنا بأن نكون ما نحن عليه، مظفورين بعضنا إلى
بعض، مستمدين الحياة أذا وعطاء من أحدنا الآخر. ألا نشترك جميعا بنفس
الأرض ونفس السماء؟. أليست موجودة من أجلنا كما نحن موجودون من أجلها
؟. نحن ننتمي جميعا أحدنا إلى الآخر، ونحن جميعا لأجل بعضنا البعض.
والله أيضا لنا كما إننا لله. نحن مدعوون للنمو لكي نكون نحن بكل كمالنا
الذاتي ممثلين حياة، لأن نأخذ من الآخرين ونعطي لهم، دون أن تعيقنا
المخاوف، الاحكام المسبقة، والتحاملات، أو مشاعر التفوق أوالدونية.

أنا مؤمن بأن الناس لا يستطيعون الانخراط في العمل لصالح الأمة
العام إلا بعد أن يكتشفوا بأننا جميعا مدعوون لأن نكون أشخاصا خدومين،
ندعو ونعمل من أجل السلام، الصالح العام هو ذلك الشيء الذي يساعد الجميع
على الحصول على حياة أفضل.

كتب المؤرخ واللاهوتي المسكوني دونالد نيكول بإسهاب في مواضيع
عديدة. وبالأخص كان يمتلك عقلا استكشافيا عن دور الأديان الكبيرة كوسائل
لتمثّل الله. وقد كتب في كتابه المملوء صدقا إلى درجة الاستفزاز " غبطة الحقيقة
" ، كيف كانت الكنائس الكاثوليكية والبروتستانتية في ألمانيا النازية عاجزة عن
تقديم العون والإسناد للمضطهدين من قبل هتلر، بالرغم من علمهم بما كان

يجري وبالرغم من علمهم بأن ما كان يجري كان خطأ. لقد انغلقت هذه الكنائس على نفسها، وفقدت القدرة على رؤية المبادئ الأكبر التي كانت ملتزمة بها.

أليست كل الأمم بحاجة إلى أن تكتشف بأنها مرتبطة ببعضها البعض بمصير مشترك، لكي يعم السلام العالم؟. نحن مدعوون للاهتمام بالآخرين لأننا ننتمي إلى عائلة الأمم.

الانتماء معا في مجتمع متعدد

من أين ينبعث الإحساس الأوسع بالانتماء؟ كيف نتخلص من قيد الانتماء إلى المجموع المحكم؟. أنا مؤمن بأن الأمر يتعلق بالاتصال الإنساني، والصدقة، والاستماع إلى قصص بعضنا البعض.

نحن نتأثر جميعا عند معاملتنا بصورة لطيفة من قبل شخص من ثقافة أخرى حتى وإن لم نكن أعضاء في مجموعة تلك الثقافة، ونتأثر كذلك عندما يكشف أشخاص من ثقافات أخرى لنا عن ألمهم الداخلي، ضعفهم والمصاعب التي يتعرضون لها. ومما يكون السبب في ذلك هو أننا عندما نشعر بصورة أعمق بهذه الرابطة الإنسانية المشتركة. تنمو الصداقة بين ناس مختلفي الخلفيات والثقافات لأنهم يلتقون كأشخاص، وليس لأنهم يشتركون بتراث مشترك. تنمو مثل هذه الصداقات لأننا جميعا ننتمي إلى المجموعة الأكبر من كل الجماعات الأخرى، الجنس البشري.

من جهة أخرى يعتبر بعض المتذبذبين الجماعات المتعددة حيث يلتقي ويختلط ناس ذوي ثقافات وخلفيات دينية مختلفة، مجتمعات خطيرة، لأنهم يشعرون بعدم إمكانية المحافظة على القيم الدينية في مثل هذه الجماعات. أن خطر الانحدار الأخلاقي خطر حقيقي إلا أن الناس عندما يبدأون بالالتقاء كأعضاء في الجماعة الإنسانية الكبيرة وليس كأعضاء في مجموعة معينة، تتولد قيمة معينة، حيث تتلاقى القلوب ويتلاقى الناس خارج الانتماء الثقافي والديني. وتبدأ التعصبات بالتراخي والضعف حالما نكتشف أن الانتماء إلى مجموعة محددة يمكن أن ينمي لدينا أوهاما في التفوق.

عندما يعمل الدين على عزل الناس في مجموعات خاصة منغلقة، يضع الانتماء إلى المجموعة ونجاحها ونموها حجما فوق قيم الحب والمخاطرة بالتعرض لأذى الآخرين، فلا يعود وسيلة لتغذية القلب وانفتاحه. وعندما يحدث هذا يتحول الدين إلى أيديولوجيا، يعني سلسلة من الآراء تفرضها على أنفسنا وعلى الآخرين، وتعزلنا هذه الآراء وراء حواجزها. أما الدين الذي يساعدنا على فتح قلوبنا بمحبة وتعاطف لأشخاص لا ينتمون إلى عقيدتنا لنساعدهم في العثور على مصدر الحرية في قلوبهم ولأن تنمو عاطفتهم وحبهم للآخرين، إنما هو مصدر للحياة.

القلب ليس " ناجحا " على الإطلاق، فهو لا يسعى وراء القوة، الى عناوين الشرف، والامتيازات، أو الكفاءة، بل يسعى إلى إقامة علاقة شخصية مع قلب آخر، وجماعة مشتركة من القلوب، نأخذ ونعطي الحب. إن انفتاح القلب هذا يستوجب التعرض لخطر الانجرار والمجاهرة بحاجتنا ونقاط الضعف فينا، فالقلب يعطي وبأخذ ولكنه يعطي قبل كل شيء. ينكشف القلب

للمتواضعين والذين يصرخون في ضعفهم وحاجتهم طالبين الفهم والحب. إن ما يضعف جدران التعصب هو القلب البشري وحاجته للمشاركة، وهو يقودنا من الانغلاق إلى الانفتاح، من أوهام التفوق إلى التعرض لمخاطر الإنجرار وانكشاف العيوب والتواضع، ونتيجة لهذا السبب نحن لا نجد الأمان في المجموعة بل نجده في قلوبنا التي التقت بقوة داخلية جديدة، نضج حقيقي.

المجموعات المنغلقة والمجموعات المنفتحة

أحيانا يعمل السبب الذي يدعو الناس إلى التجمع معا، وهو هدف الجماعة، على خلق العلاقات الشخصية، فلا يعود الأفراد يتلاقون كأشخاص، في علاقات من القلب إلى القلب، بل يلتقون كأعضاء في نفس المجموعة، تحركهم نفس الأهداف. والحقيقة هي أن بعض الأشخاص يختبئون وراء أهداف ونشاطات المجموعة، لأنهم وبالتحديد يريدون تجنب إقامة علاقات. فلا يريدون قيمة للآخرين إلا كأعضاء في المجموعة، يشتركون في الأهداف والمثاليات، ولا يريدون فيهم أشخاصا لهم ذوات خاصة بهم.

لقد بدأنا في السفينة نرى مدى تعقيد هذه الموضوعات. في المراحل المبكرة من الحياة الجماعية، فعلنا كل ما في وسعنا لتقوية الأواصر بين كل الأعضاء، وقد تم هذا من خلال اجتماعات الجماعة واحتقالاتها، والخدمات الدينية، وقضاء أوقات الصلاة والفراغ معا، وطبعا من خلال الاهتمام الذي أعطي لكل فرد. لقد منحت قوة الحياة المشتركة نظاما هيكليا ينظم حياة

الأشخاص، ساعدهم في الحصول على الغذاء الفكري والروحي الضروري وساعدهم على العيش في أمان.

بإمكان حياة جماعية مكثفة كهذه أن تفصل الجماعة عن جيرانها وعن المجتمع ككل، بل وتستطيع حتى أن تمنع الأشخاص من النمو ليحققوا استقلالاً ذاتياً، ويحققون حرمتهم الفردية، ويضطلعون بالمسؤولية ويحققون نضجاً داخلياً. عندها تصبح حياة الجماعة كمنطقة أمان، عالماً " مثالياً " حيث يُتوقع من الجماعة أن تلبى كل حاجات أعضائها إلى أن تتهدم بالطبع، نتيجة لعدم تلبية الاحتياجات المتوقعة ونتيجة للصراعات الداخلية التي تنشأ بين الأفراد.

إلا أن الجماعة لو سعت إلى الانغمار التام في المنطقة المحيطة بها يمكن أن تفقد هويتها. بإمكان أعضاء الجماعة أن ينقصوا كثيراً في كونهم واحداً مع جيرانهم، ويركزوا على عدم كشف الاختلاف فيما بينهم بحيث يختفي تدريجياً إحساسهم بالانتماء، وإحساسهم بهوية المجموعة ومن ثم رؤاهم، من الصعب إقامة توازن بين الانغلاق وامتلاك هوية واضحة ترعى النمو روحياً وفي قيم معينة، والانفتاح تجاه أناس لا يعيشون نفس القيم. أليس هذا هو التحدي الذي تواجهه الأديان وكل الكنائس المسيحية؟. الانفتاح الشديد يمكن أن يؤدي إلى إضعاف الحياة نوعياً ويوقف النمو الطبيعي وصولاً إلى النضج والحكمة، والانغلاق الشديد يمكن أن يكون خانقاً.

الجماعة بحاجة إلى حكمة، ونضج أعضائها وحرمتهم الداخلية لمساعدتها في تحقيق التآلف والانسجام الذي لا يحافظ على الحياة ويعمقها، وتحقيق إحساس حقيقي بالانتماء فحسب، بل ويعطي ويأخذ حياةً. عندئذٍ تصبح

الجماعة بيئة حقيقية للارتقاء الإنساني، مساعدة الجميع للوصول إلى الانفتاح، والحرية، والالتزام بالصالح العام.

من المثير للاهتمام في هذا الصدد أن نعرف كيف يستجيب يسوع، الذي هو رأس وقلب كل العقائد المسيحية إلى السؤال: من هو جاري؟. إنه لا يتكلم عن الشخص الذي يعيش في الجوار أو الشخص الذي يشترك بنفس الرؤية باتجاه الحياة ونفس الرؤية الدينية. إنه يحكي قصة الرجل الخارج من اورشليم ذاهبا إلى أريحا والذي يتعرض له اللصوص ويضربوه. وهو ملقى على الأرض يمر به أشخاص من جماعته ممن يتوقع منهم أن يقدموا العون له، إلا أنهم يمرون من الجهة الأخرى. إلا أن غريبا، ينتمي إلى مجموعة دينية مختلفة هو الذي يتوقف ويعتني به. من الواضح أن الجار الحقيقي هو هذا السامري الصالح الطيب، الذي ينظر إلى الرجل الجريح كجار، ويعامله كجار ويتصرف كما يجب على الجار أن يتصرف. لقد علم يسوع خلال حياته، وقاد الناس إلى رؤية إنسانيتنا المشتركة، حيث الرحمة والعطف وطيبة القلب أهم بكثير من الخلفية الفكرية.

الصالح العام: أي مجتمع؟

الانتماء هو المكان الذي يكتشف فيه الناس معنى أن يكون المرء إنسانا. إنَّ زيادة المعاناة القاسية والإحساس بالوحدة والتمركز المزمّن على الذات

يؤدي إلى تحطم الانتماء وتحطم العائلة. وهنا نجد جذور قلقنا الاجتماعي الكبير.

ما هي العوامل، في العائلة، في المدرسة، وفي الجماعة، التي تجعلنا نعيش القيم الأخلاقية، ونفتح أمام احتياجات الآخرين، ونشترك معهم ولا نسعى للحصول لأنفسنا ولمجموعتنا على أقصى ما نستطيع؟.

أعتقد أن ما فقدناه هو فهم للانتماء باعتباره مكانا للإصلاح والتسوية، فمكان الإصلاح والتسوية هو ذلك المكان من الانتماء حيث نجد تنظيمات وضوابط، حيث نستطيع أن نبحث معا عن الحقيقة، حيث نجد الشفاء لقلوبنا التي تفتقد القدرة على الاتصال الصحي مع القلوب الأخرى، مكانا نتعلم فيه أن لا نقفل على أنفسنا في سجن احتياجاتنا بل نتعلم كيف نرحب بالآخرين كما هم، وأن نتقبل امتلاكهم مواهب تختلف عن مواهبنا وقابليات تختلف عن قابليتنا، وأن نتقبل أنهم مهمون ولهم قيمة. فمكان الإصلاح يساعدنا لأن نكتشف أننا جزء من شيء أكبر بكثير، وإن باستطاعتنا معا أن نفعل شيئا جميلا. كيف نُسعر من جديد جذوة الدوافع التي تدفعنا إلى الانفتاح على الآخرين ونكافح من أجل أن نجعل عالمنا مكانا أفضل للجميع؟ أليس من واجب الكنائس، والأديان، والمنظمات الإنسانية، والموظفين المدنيين، والمدارس الفكرية، والحكومات المحلية، خلق أوضاع وأماكن الانتماء والحوار حيث نستطيع أن نكتشف أن باستطاعتنا أن ننمو في الحب، ونعثر على الشفاء لقلوبنا، ونفعل شيئا جديدا للآخرين؟. أليس صحيحا إن أحداث تغيير في الجماعة لا يعتمد على عمل المحترفين فحسب بل على عملنا جميعا مع بعضنا البعض؟. لست متأكدا من الشكل الذي على الجماعة أن يتخذه ليتمكن المزيد

والمزيد من الناس من العمل معا في قدر أكبر من الحب والاحترام المتبادل، إلا أنني متأكد من أن بإمكان مثل هذه المجموعات أن تصيح نورا وأملا للعالم. لا نبدأ بالشعور بأن هناك من ينصت إلينا ويعتبرنا ضمن جماعته، وأنا مُقَيِّمُون إلا عندما يكون هناك تبادل في الآراء. ما بهم في هذا الصدد هو أن كل واحد منا يبدأ بالثقة في جماله الخاص وقدرته الخاصة على عمل أشياء جميلة، وإن حياتنا ليست مجرد صراع من أجل البقاء، صراعا من أجل الحصول على المزيد في مجتمع تنافسي. فعندما نبدأ بالإيمان في وجود إنفراج أعظم عبر العمل مع ومن أجل الآخرين، بدلا من العمل لأنفسنا فقط، عندها سوف يصبح مجتمعنا مكانا حقيقيا للاحتفال والبهجة.

إذن، الانتماء جزء من إنسانيتنا، والانتماء الأول والابتدائي هو إلى العائلة، حيث نجد الحياة وننمو ونكتسب لغة، وعادات، وثقافات، ومواقف، ويترك عديدا، خصائص سيكولوجيتنا. والنمو في الكائنات البشرية كالنمو في النباتات والأشجار. نحتاج إلى أن نكون متجذرين في الأرض، والتي تغذيها هي الشمس، والماء والهواء للنمو والنضج وحمل الثمار وإعطاء حياة جديدة. إذا كانت هذه "الأرض" مكان لغة وثقافة فهي جوهرها مصنوعة من الناس، أناس نرتبط بهم، أناس ملتزمون يحبوننا ويقدرونا، أناس يدعوننا لإقامة علاقات صحية ويدعوننا إلى الانفتاح والحب. من دون بشر آخرين ننغلق على أنفسنا في خوف ورهبة.

شخصياتنا تتعمق وتنمو عندما نعيش في انفتاح واحترام للآخرين، وعندما يُنصت إلى الضعيف، ويفوض ليتحدث، يعني عندما يُساعد الناس على أن يكونوا هم أنفسهم، ويمتلكون حياتهم ويكتشفون قدرتهم على إعطاء حياة

للآخرين. عندها ينغلق الباب على الخوف والرهبنة، ويجعلنا الحب منفتحين على الآخرين.

سأسمي الفصل القادم، طريق الشفاء من الإبعاد إلى الضم، ومن الخوف والرهبنة إلى الثقة. حيث ان كل شيء إنساني بحاجة إلى تغذية: الجسم، والعقل، والذاكرة، والخيال، وخصوصاً القلب، يجب أن يتغذى بالمواجهة مع قلوب أخرى باستطاعتها أن تقودنا إلى جنائن أخرى للحياة، وإلى تعرض جديد واعمق للأحاسيس، وإلى فهم جديد للكون، والله، وللتاريخ، وتقودنا إلى جمال وعمق كل الكائنات البشرية.

الفصل الثالث

من النبذ إلى الضم: طريقاً للشفاء

تخبرنا يسوع في إنجيل لوقا قصة مؤثرة: كان هناك شحاذ أسمه لعازر يعيش في الشوارع، وكانت القروح تغطي جسمه ومقابله في بيت جميل كان يعيش رجل غني يقيم ولائم كبيرة لأصدقائه، وكان لعازر يشتهي أن يشبع من فضلات مائدة الغني إلا أن الكلاب كانت تلحس جروحه. مات لعازر وذهب إلى مثوى السلام في "أحضان إبراهيم". ومات الغني كذلك وذهب " إلى مكان العذاب ". نظر الغني إلى الأعلى فرأى لعازر تتشع من وجهه أمائر السلام فصاح متوسلاً " إرحمني يا أبي إبراهيم وأرسل لعازر ليليل طرف إصبعه في الماء ويبرد لساني، لأنني أتعذب كثيرا في هذا اللهب ". فقال له إبراهيم: " هذا مستحيل. بينك وبينه هوة لا يستطيع أحد أن يعبرها"، وكان بإمكان إبراهيم أن يضيف: " مثلما كانت هناك هوة بينك وبينه أثناء حياتك على الأرض." (لوقا 16: 19-31)

تخبرنا قصة لعازر هذه الكثير عن عالم اليوم حيث توجد هوة شاسعة بين من يملكون الطعام، والمال، والراحة، وبين الجياع والذين لا مأوى لهم. أتذكر أنني رأيت أطفالا في كلكتا، وقد ألصقوا أنوفهم إلى نافذة مطعم فخم. وبين الحين والآخر كان البواب يطردهم بعيدا. يكره الأغنياء . ومنهم أنا

والكثيرين منكم الذين يقرأون هذا الكتاب . يكرهون رؤية الشحاذين بالأوساخ التي تغطيهم يحدقون إليهم. ألم نحس بالحرج والخوف أمام أولئك الجياع؟.

اقتربت مني في أحد الأيام في باريس امرأة شعثناء وصاحت في وجهي: أعطني بعض المال! وبدأنا نتكلم. عرفت أنها خارجة لتوها من مصح عقلي، وأدركت بسرعة بأنها كانت بحاجة إلى أشياء كثيرة وأصابني الخوف. كنت على موعد ولم أرغب في التأخر، لذلك أعطيتها قليلا من النقود وذهبت في طريقي، مثل الفريسي واللاوي في مثل الإنجيلي عن السامري الطيب. كنت خائفا من أن يبتلعني ألمها وحاجتها.

ما هذه الهوة التي تفصل بين الناس؟. لماذا لا نستطيع أن ننظر إلى لعازر مواجهة لتلتقي عينانا بعينه؟ ولماذا لا نصت إليه؟.

أشك في أننا ننبذ لعازر لأننا نخاف أن تتأثر قلوبنا إذا أقمنا علاقة معه. إذا أنصتنا إلى قصته وسمعنا صرخة الألم الصادرة عنه. سنكتشف بأنه إنسان. وقد نتأثر بقلبه الكسير وسوء حظه. ما الذي يحدث عندما تتأثر قلوبنا بهذا الشكل؟ قد نعمل شيئا يخفف من تعاسته ويساعده، شيئا يخفف ويسكن من ألمه، وإلى أين سيقودنا ذلك؟ عندما ندخل في حوار مع شحاذ نخطر بالدخول في مغامرة. لأن لعازر ليس بحاجة إلى نقود فقط، بل ويحتاج مكانا يأوي إليه، أنه يحتاج إلى معالجة، وربما احتاج إلى عمل بل وحتى أكثر من ذلك أنه بحاجة إلى صداقة. ذلكم هو السبب في خطورة إقامة علاقة مع لعازرات هذا العالم. فإذا أقمنا هذه العلاقة، نغامر بتغيير حياتنا.

كلنا مسجونون بهذا القدر أو ذاك في ثقافتنا، في عاداتنا بل وحتى في علاقات صداقتنا وأماكن انتمائنا. فإذا صادقت شحاذا، أهرز المركب. وهذا قد يؤدي إلى انزعاج الأصدقاء، بل ويشعرون بالخطر يهددهم بسبب من طرفي الجديدة التي أتبعها، وربما شعروا بالتحدي ليقوموا بالمثل. قد يتحولون إلى عدوانيين، وقد ينتقدون الطرق الطوباوية الحمقاء للشخص الذي يصادق شحاذا من وسطهم.

لقد بدأت أكتشف كيف أن الخوف قوة محركة فظيعة في كل حياتنا. نحن نخاف من الناس المختلفين. نخاف من الفشل والرفض. ولقد ازدادت معرفتي وإدراكي ليس بالمخاوف الخاصة في فحسب بل وبمخاوف الآخرين أيضا. الخوف يكمن في جذر كل أشكال الرفض، مثلما أن الثقة تكمن في جذر كل أشكال الضم إلى داخل المجموعة.

إن تاريخ الإنسانية هو تاريخ الحروب، والقمع، والعبودية، والنبذ. لقد خلق كل مجتمع في كل وقت أشكال الطرد والنبذ الخاصة به. هناك قائمة لا نهاية لها من الناس الذين يمكن أن ننبذهم؛ ومن المؤكد أن كل واحد منا مدرج في قائمة أحدهم: الذين بدون مأوى، والمرضى، والذين ينتظرون الموت، والشباب، والعجائز، والضعفاء، والمعوقين، والغرباء، والمهاجرين، والمصابين بالأمراض الخبيثة

لقد تكونت فكرتي عن النبذ بصورة رئيسية مع المعاقين عقليا. فقد زرت مؤسسات بغليضة في جميع أنحاء العالم. في دول أفريقية، ورأيت رجالا ونساء يعتبرون "مجانين"، وقد قُيدوا إلى الأشجار وجُلدوا إلى أن سالت دماءهم لتحريرهم من الشيطان المزعوم الذي كان يسكنهم. وفي أمريكا اللاتينية زرت

مأوى يعيش فيه حوالي مائة رجل وامرأة، معظمهم كانوا نصف عراة، كانوا يشتركون في السكن في مأوى آيل إلى الإنهيار فيه جردان سوداء وبيضاء كبيرة.

إن هذا النوع من المعاملة الجسدية ليس سوى مظهرا واحدا من مظاهر نبذ أوسع. لقد وصلت إلى قناعة بأن المعاقين العقليين هم أكثر الناس تعرضا للقمع والنبذ في العالم، حتى إنّ والديهم غالبا ما يخجلون من إنجابهم طفلا " مثل هذا ". يشعر مثل هؤلاء الوالدين بالذهول ويخجلون من الفشل الظاهر، هذه هي ضخامة الضغط الاجتماعي لخلق طفل كامل غير مشوه.

بعض الثقافات ترى في الطفل المعوق عقوبة من الله تنزل بالوالدين. يسأل التلاميذ في الفصل التاسع من إنجيل يوحنا عن الشحاذ الذي ولد أعمى: " هل كان ذلك بسبب ذنوب والديه ؟ ". نجد هذا الشعور بالذنب في الكثير من الثقافات.

جاءني دكتور في فرنسا ليكلمني عن ابنته المعوقة التي كانت في الحادية عشرة من العمر. أخبرني بأن رد فعله المباشر عندما علم بعوقها كان: " ما الذي فعلته الله ليرسل لي مثل هذه الكارثة ؟. " من الصعب العيش مع مشاعر ذنب مثل هذه.

الخوف في أساس الحكم المسبق والنبذ

عشت لأكثر من ثلاثين سنة مع رجال ونساء تُبذوا من الجماعة. لقد رأيت أولا كيف أن الخوف دافع كبير وفظيع للفعل البشري. ومن خلال خبرتي

مع هؤلاء الرجال والنساء المعوقين، أصبحت أكثر وعياً بالخوف الكامن في مركز الحكم المسبق والنذير.

كلنا نخاف من الناس المختلفين عنا، الناس الذين يتحدثون سلطتنا ويقينياتنا، ومنظومة قيمنا. وكلنا نخاف من فقدان ما هو مهم لنا، الأشياء التي تعطينا الحياة، الطمأنينة والأمان والموقع الاجتماعي المتميز. نحن نخاف من التغيير، وأشك في أننا على الأرجح نخاف أكثر من قلوبنا نحن.

الخوف يجعلنا ندفع المعوقين العقليين بعيداً إلى أوضاع كئيبة موحشة. يمنعنا الخوف جميعاً من مشاركة لعازرات العالم ثمن وجبة الطعام في جيبنا. ولسخرية القدر، الخوف هو الذي يمنعنا من أن نصبح أكثر إنسانية، يعني أنه يمنعنا من النمو والنضج. الخوف لا يريد لأي شيء أن يتغير، والخوف يطالب ببقاء الوضع الراهن على حاله. والوضع الراهن يؤدي إلى الموت.

يسعى الخوف دائماً لأن يجد له هدفاً. فإذا شعرت بانعدام الأمان في نفسي، سأعمل دائماً تقريبا على العثور على كبش فداء لخوفي، شخص أو شيء أحوله هدفاً لخوفي ومن ثم هدفاً لغضبي. إلا أنه توجد فئات واسعة من أهداف الخوف، أعتقد أن الأمر يستحق النظر إلى بعضها.

الخوف من المختلفين

أولا وقبل كل شيء هناك خوف من المختلفين. وهذا الخوف كان موجودا دائما، ويعني الخوف من الشخص الذي يهدد الجماعة القائمة. يملك الذين يخافون من المختلفين مصلحة في الإبقاء على نظام الجماعة، وغالبا ما تستند هذه المخاوف على النقود والقوة، أو الحاجة إلى التحكم بالآخرين والشعور بالتفوق عليهم. عندما كان ينظر إلى الملوك والرؤساء كممثليين لله على الأرض، حُماة الحق والدين والأخلاق، فكل من عارض هؤلاء الرعاة كان يعتبر شريرا، وعميلا للشيطان. فإذا كان الوضع الراهن معينا من الله فإن من يقف ضد الوضع الراهن يعني أنه يقف ضد الله والنظام الطبيعي. والملايين التي عذبت وصُفيت في روسيا الشيوعية، ومعسكرات الاعتقال، وفي جنوب أفريقيا، وفي غواتيمالا، وفي شيلي وأي من البلدان العديدة في زماننا كان ينظر إليهم ويكل إيمان من قبل من كانوا يعارضون باعتبارهم أشرارا وخطرين.

وقصة الإنسانية مليئة بقصص الأبطال والشهداء ممن يملكون رؤى جديدة للإنسانية، لقد اعتبرهم البعض إرهابيين وخارجين على النظام، واعتبرهم آخرون أنبياء للسلام. لقد تم إلقاء المسيحيين لتقتربهم الوحوش في الكولسيوم لأن الرومان وجدوا أن هذا الدين الجديد والغريب يهدد استمرار النظام. من طبيعة قوة السلطة أن تقاوم التغيير، فالحق الإلهي للملكية قديم قدم الإنسان على الأرض. وكان رجلا على الأرجح. قدم أول إنسان على الأرض الذي حاول أن يؤسس قانون استمرار سلطته.

الخوف

من الاختلاف

ثانياً، هناك الخوف من الاختلاف. لقد حاولت في الفصل الأخير أن أبين كيف يمكن أن يكون الانتماء حجراً نرتقي عليه في الحياة، وبينت كيف يمكن للانتماء نفسه أن يخنق ويمنع الحياة فعلاً وواقعاً. تدعو الطبيعة البشرية الإنسان إلى الرغبة في الانتماء إلى مخلوقات تمتلك نفس العقليات، الانتماء إلى أناس من نفس الثقافة أو إلى من لهم نفس الأهداف والمصالح. إذا عرفنا بعضنا البعض نستطيع أن نعمل معاً، ونشعر بأمان ونحن معاً. أما الذين يختلفون عنا فيثيرون فينا الاضطراب.

من هم هؤلاء المختلفون؟ إنهم الذين يعانون من الفقر، الانكسار، العوق، أو الإحساس المؤلم بالوحدة. يصرخون إلينا طالبين النجدة، هؤلاء الملايين اسمهم لعازر. غالباً ما يعيشون حياة تعيسة في حين يعيش الآخرون حياة مترفة. وتصبح صرخاتهم خطرة بالنسبة للذين يعيشون حياة مترفة منا. فإذا استمعنا إلى صرخاتهم وفتحنا لهم قلوبنا، فإن ذلك سيكلفنا شيئاً. وعليه نتظاهر بعدم سماع صراخهم ومن ثم ننبذهم.

هؤلاء المختلفون هم الغرباء بيننا. هناك طرق جديدة للاختلاف: قد يختلف شخص بسبب القيم التي يحملها، أو الثقافة، أو العرق، أو اللغة، أو التعليم، أو الدين، أو الاتجاه السياسي. وفي الوقت الذي يجد معظمنا أن من المحفز أو على الأقل المثير للاهتمام الالتقاء بغريب لفترة قصيرة من الوقت، إلا أن أمر أن نفتح أمام الغريب انفتاحاً تاماً ونسمح له أن يصبح صديقاً لنا فهذا يختلف تماماً.

يشدد هذا الخوف من الاختلاف وضوحا مع المعاقين عقليا، أتذكر أول ما قابلت مثل هؤلاء الناس. عندما سُرحتُ من البحرية أصبح الأب توماس فيليب القس الفرنسي مرشدي الروحي وكان له دور في تأسيس " السفينة " وقد دعاني للالتقاء "بأصدقائه الجدد" في مؤسسة صغيرة حيث كان القسيس المشرف عليها. حينها كنت أدرس الفلسفة في كلية سانت ميشيل في تورنتو فقبلت دعوته، إلا أنني كنت شديد القلق كيف بإمكانني الاتصال مع أناس بإمكانهم الاتصال مع أناس ليس بإمكانهم الكلام، ما الذي سنتكلم عنه؟ كنت خائفا من فشلي في التلاؤم مع الوضع ومن إمكانية عدم معرفتي ما الذي سأفعله ومن كوني سأصرف بصورة سيئة.

بعد أن نكون قد أنشأنا حياتنا حول قيم معينة من المعرفة، القوة، والتقدير الاجتماعي، يصبح من الصعب علينا قبول أولئك الذين لا يستطيعون العيش بنفس المجموعة من القيم. ويصبح الأمر كما لو أن مثل هؤلاء الأشخاص يشكلون تهديدا لنا.

تكون العلامات المميزة (الوصمات) حول المعاقين عقليا قوية. وهناك سؤال ضمنى: إذا لم يتمكن شخص ما من العيش وفق قيم المعرفة والقوة، قيم الجماعة الأوسع، نسأل أنفسنا، هل يستطيع هذا الشخص أن يكون إنسانا كاملا؟.

عموما يوضع المعاقين عقليا في النهاية القصى للطف البشري. عندما واجهت مثل هؤلاء الأشخاص لأول مرة في " السفينة " آمنت بالحب، إلا أن الحب كان يعني بالنسبة لي الكرم وعمل الخير مع الآخرين. حينها لم أدرك

أن باستطاعتنا من خلال الحب أن نساعد الآخرين في اكتشاف قيمتهم الجوهرية الحقيقية، بإمكاننا أن نكشف لهم جمالهم وفرادتهم.

بدأت تدريجياً أرى من خلال " السفينة " قيمة تواصل القلوب وقيمة الحب الذي يفوض الحياة للآخرين ويساعدهم ليقفوا على قدمهم، حب يعلن عن نفسه من خلال التواضع والثقة. وفي اعتقادي أن سبب مواجهة مجتمعنا لصعوبات في أداء مهامه، وإن سبب مواجهتنا الدائمة لعالم يعيش في أزمة، مليء بالعنف، والخوف، والإساءة، هو أننا لسنا واضحين في معنى أن يكون المرء إنساناً. نحن نميل إلى اختزال الإنسانية إلى مجرد اكتساب المعرفة، والقوة، والمكانة الاجتماعية. لقد استبعدنا القلب، ناظرين إليه كرمز الضعف، ومركزاً للعواطف بدلاً من كونه محطة لتوليد الحب تستطيع إعادة توجيهنا وإنقاذنا من التمرکز على الذات، كاشفة لنا وللآخرين الجمال الجوهرى للإنسانية، وعاملة على بذل العون لنا لننمو.

الخوف من الفشل

تكلمنا عن الخوف ممن هم خارج الجماعة، والخوف من الاختلاف، هناك خوف آخر يحرك سلوكياتنا ألا وهو الخوف من الفشل.

الخوف من الفشل والشعور بفقدان الحول وعدم القدرة على التلاؤم تكونت في داخلي منذ فترة طفولتي. كنت مجبراً على أن أكون ناجحاً. كنت مدفوعاً إلى أن أثبت جدارتي كان يتوجب علي أن أكون على حق. هذه الحاجة

إلى النجاح ولأن أكون مقبولاً، بل وحتى الحاجة إلى استدرار إعجاب الناس الذين أهتم لهم واعتبرهم رفيعي المنزلة كانت قوة محرّكة قوية في داخلي وهي قوة محرّكة في قلب العديد من المساعي السرية.

من الواضح أن الدافع إلى النجاح وإرضاء الآخرين دافع ذو قيمة، إلا أن لهذا الدافع جانبه المظلم. لا يستطيع الجميع النجاح في نفس امتحان القبول، فالعديد يجب أن يفشلوا. وبإمكان الفشل أن يحطم الناس بل هو يحطمهم. هذه الحاجة إلى النجاح مرافقة بالخوف من الفشل والخوف من النبذ والوقوع ضحايا الإحساس بالوحدة والمعاناة، يمكنها أن تدفعنا إلى التعلق وإقامة العلاقة مع الذين يعجبون بنا ويقدرّوننا: الذين ينظرون إلينا كمنتصرين. وبالطبع نحن نرى الآخرين يلعبون نفس اللعبة.

إلا أن المعاقين عقلياً يبدون شديداً الاختلاف، كما لو أنهم يعيشون في عالم آخر، إذ من المستحيل الاتصال معهم بسهولة. وبإمكاننا أن نشعر بالانعدام التام للقوة في مواجهتهم.

يكمن الخوف من الفشل، والخوف من التلاؤم مع وضع ما، الخوف من عدم القدرة على إقامة علاقة مع شخص آخر، في قلب هذا الخوف من الاختلاف. ومن الغريب. يبدو الأمر كما لو كنا نسير في أرض مجهولة.

الخوف

من الخسارة والتغيير

هناك الخوف من الخسارة والتغيير. لماذا يخاف الغني والقوي . باختصار أنت وأنا . كل هذا الخوف من اللعازرات بيننا؟ أليس ذلك بسبب خوفنا من اضطرارنا إلى مشاركة ثروتنا معهم، خائفين من أن نفقد شيئاً؟ من السهل إعطاء عدة قطع نقدية للشحاذ، إلا أنه من الأصعب أن نعطي ما هو ضروري للحفاظ على مستوى معيشتنا. نحن نشعر بعجز كبير في مواجهة الفقر. ما الذي نستطيع فعله لتغيير كل تلك الأوضاع التي تبدو مستحيلة؟ عندما هربت من تلك المرأة التي كانت قد خرجت لتوها من المصح العقلي في باريس، كان السبب في هربي هو أنني لم أعرف ما الذي أفعله حقاً، لم أعرف ما هو الملائم فعله، لقد شعرت بأن دوامة فقر تجرفني إلى داخلها. الانفتاح مشروع شديد الخطورة، فأنت تخاطر بمنزلتك الاجتماعية، نفوذك، نقودك، بل وحتى صداقتك وتقديرك والإحساس بالانتماء الذي نعطيه قيمة كبيرة جداً، وتخاطر بالوقوع ضحية الفوضى التي يولدها الإحساس بالوحدة.

لعدة سنوات كنتُ صديقاً لزوجين، وعلى علاقة حميمة مع عدد من الأزواج الآخرين. كانت المجموعة مهتمة بمشكلة توسع الهوة بين الأغنياء والفقراء في مدينتهم فأرادوا أن يفعلوا شيئاً يحل المشكلة أو يخففها. وقد نفذ صبر صديقيّ من النقاش بحثاً في الموضوع وقررا أن يفعلوا شيئاً لوحدهما. غادرا المجموعة وذهبا ليعيشا في منطقة فقيرة من المدينة. وقد نظر الآخرون من المجموعة إليهما كخائنين للمجموعة فتجنبوهما. وهذا يذكرني دائماً بأننا عندما نلتزم تجاه المنبوذين والمهمشين، نخاطر بالتعرض للانتقاد من قبل عائلتنا وأصدقائنا. الخروج من ثقافة الأصدقاء والعائلة مثل الدخول في عالم آخر.

نحن جميعا بحاجة إلى مقدار معين من الأمان لنتمكن من العيش بسلام. وهذا الإحساس بالأمان يأتي من الطريقة التي نعيش بها حياتنا، أنه يأتي من الوجود في العائلة والدعم الذي نحصله منها، يأتي من المكان الذي نعمل فيه ومن الروتين اليومي. بإمكان ما هو غير متوقع، في هذا السياق، أن يثير أزمة. خسارة المعلوم والانتقال إلى المجهول. يمكن أن يعني خسارة فظيعة لنا، لنعيش مثل هذه الخسارة يحتاج المرء إلى قوة داخلية كبيرة.

قد يكون أمرا سهلا جدا إعطاء الطعام للشحاذ الذي يطرق الباب ولكن إذا ظل يعود دائما . مع أصدقائه . ما الذي نفعل عندها؟ بالإمكان أن نضيع تماما ونفقد أمننا وطمانينتنا. ونصبح كأننا في بحر لا أفق له، في أرض مجهولة من دون خارطة. نخاف من أن الشحاذ يتردد علينا ليغير نمط حياتنا. نحن نخاف جميعا من القبيح والوسخ. نحن جميعا نريد أن نهرب من أي شيء قد يتكشف عن الفشل، والألم، والمرض، والموت، تلك التي تختبئ وراء السطح المطلي الصقيل لحياتنا المنتظمة. تعني الحضارة، في جزء من أجزائها على الأقل بأن الأشياء أفضل مما هي عليه فعلا. نحن نريد جميعا أن نكون في مكان يمنحنا السعادة، حيث الكل طيبون ولطفاء وبإمكانهم الاعتناء بأنفسهم. نحن نهرب من ضعفنا الخاص بنا ومن ضعف الآخرين ونرفض أن نسمع صراخ المحتاج. كم هو سهل أن نقع ضحايا وهم عالم جميل بعد أن نفقد الثقة في قدرتنا على تحويل عالمنا المحطم إلى مكان أكثر جمالا.

منشأ

هذه المخاوف

ما هو منشأ المخاوف الفظيعة التي تعيقنا عن تحقيق رغبات قلبنا في عالم أفضل؟ أنا مؤمن بأن مناشيء الخوف من الخارج على النظام والاختلاف، والخوف من الفشل والخسارة، بالإضافة إلى الخوف من القبيح والوسخ؛ هي موجودة في المخاوف المتكونة لدينا منذ الطفولة. وبإمكان الوالدين أن يجعلوا أطفالهم يشعرون أنهم يستحقون حبهم، يعني أن حب الوالدين هو مكافأة على السلوك الجيد. تحت هذه الظروف يشعر الأطفال بأنه يتوجب عليهم أن يكونوا كاملين، وأن يرتقوا إلى معايير الوالدين قبل أن يصبحوا مستحقين لحبهم. والجدارة شيء يجب البرهنة عليه، فالقيمة الفذة لكل شخص لا يُقر بها باعتبارها خاصة جوهرية في الشخص.

يقول الفيلسوف مارتن بوبر Martin Buber في كتابه " طريق الإنسان

:"The Road of Mankind

أن مع كل شخص يأتي في هذا العالم، يأتي شيء جديد لم يكن موجوداً من قبل، شيء جديد تماماً وفريد من نوعه

إن هذه الفريدة والاستثنائية النوعية هي المطلوب من الشخص تطويرها. ولكن كيف بإمكان الأطفال أن يشعروا أنهم متميزون وفريدون إذا كان عليهم أن يتطابقوا مع معايير والديهم؟. لن يستطيع الأطفال قبول الآخرين كما هم إلا إذا تمَّ قبولهم كما هم بمواهبهم الفريدة من نوعها وبحدود إمكانيتهم. وعندها يتم احترامهم والاستماع إليهم. الحب والاحترام، مثل الخوف والتعامل هما الإرث الذي يتم نقله من شخص إلى آخر. كالانتقال من السعي للحصول على الاستحسان إلى الاضطلاع بالمسؤولية، والانفتاح أمام الأشخاص

المختلفين عنا، ان وجوب انتقال الوعي. يشبه الأمر يكسر قشرة والخروج التدريجي للشخص الحقيقي.

أحد الأسباب الرئيسية لانعدام الثقة المتبادلة بيننا، ونزوعنا إلى التجمع معا في مجموعات مقصورة على جماعة معينة، هو أن معظمنا قد اختبر الحب بأسوأ طريقة ممكنة. فعندما اكتشف أنني مقبول ومحبوب كشخص، رغم نقاطي ضعفي ونقاط قوتي، وعندما اكتشف أنني أحمل سرا في داخلي، سر فرادتي وفذادتي؛ عندها يمكنني أن أبدأ بالانفتاح على الآخرين وأن أحترم سرهم، ويبدأ الخوف من الآخرين بالاضمحلال، ويبدأ التضامن، والصدقة، والشعور الأخوي بالبروغ والظهور. وكلما ازداد وعينا بفرادة الآخرين كلما ازداد إدراكنا لإنسانيتنا المشتركة جوهريا فنحن جميعا متشابهون، بالرغم من العمر، والجنس، والعرق، والثقافة، والدين، وحدود قابلياتنا، وعوقنا. إذ لجميعنا قلوب رهيبة قابلة للإنجرار ونحن جميعا بحاجة للحب والتقدير. وجميعا نمتلك قلوبا مجروحة وقد فقدنا جميعا الثقة بما هو أعمق فينا. نحن جميعا نريد أن يقيّمنا الآخرون وأن نتمكن من تطوير قابلياتنا والنمو في حرية أعظم.

وسنستمر بالاختباء وراء مشاعر حكم النخبة، والتفوق، ووراء جدران التعصب، وإدانة الآخرين، ومشاعر الازدراء التي تولدها هذه المشاعر إلى أن ندرك أننا ننتمي إلى إنسانية مشتركة، وإننا بحاجة إلى بعضنا البعض وإن بإمكاننا أن نساعد بعضنا البعض.

لكل كائن بشري، مهما كان صغيرا أو ضعيفا، شيء يضيفه إلى الإنسانية. ففي كوننا الجميل شمس ونجوم، بالإضافة إلى عدد كبير من الحيوانات الصغيرة والنباتات التي هي مهمة لأنها جميلة، ولقابلياتها الشفائية،

وقدرتها على منح الحياة. وان كل جزء من الجسم مهم وله دور يلعبه في عافيتنا الكلية.

وعلى نفس الشاكلة؛ فإن لكل شخص، كبيرا كان أو صغيرا، دوراً يلعبه في العالم، وحالما نبدأ بالتعرف على الآخرين ومعرفتهم معرفة حقيقية، وحالما نبدأ بالاستماع إلى قصص بعضنا البعض، تبدأ الأشياء بالتغيير. فلا نعود نحكم على بعضنا البعض وفق مفاهيم القوة والمعرفة أو وفق هوية المجموعة التي ننتمي إليها، بل نحكم وفق هذه المواجهات الشخصية، من القلب . إلى . القلب. ونبدأ الانتقال من النبذ إلى الضم، من الخوف إلى الثقة، من الانغلاق إلى الانفتاح، من الإدانة والتعصب إلى المغفرة والفهم. انها إنتقالة القلب. نبدأ بالنظر إلى بعضنا البعض كأخوة وأخوات في الإنسانية ولا يعود الخوف يحكمنا بل القلب.

من النبذ إلى الضم

كيف تنتقل من النبذ إلى الضم ؟ عندما أتكلم عن " ضم " الناس، سواء المعوقين، أو الشحاذين مثل لعازر، أو أشخاصا يعانون من مرض خبيث، لا أتكلم عن البدء بإقامة مدارس خاصة أو أماكن إقامة وسكن، أو إقامة مطاعم تقدم شوربة طيبة أو بناء مستشفيات جديدة فحسب. وهذه ضرورية بالطبع ... أنا لا أقول أننا يجب أن نكون طيبين ولطفاء تجاه مثل هؤلاء الأشخاص لأنهم كائنات بشرية فقط. كما أن المسألة ليست مسألة " جعلهم طيبون ليصبحوا

مثلنا، يشاركون الخدمات الكنسية، ويذهبون إلى الأفلام السينمائية والمساح المحلية. فعندما أتكلم عن الناس المهمّشين إنما أؤكد على كونهم يمتلكون مواهب يستطيعون تقديمها للكل، فلكل منا كأفراد، للتكوينات الكبيرة من التنظيمات البشرية، وللمجتمع عموماً.

أنا مؤمن بان المنبوذ يعيش وفق قيم نحن جميعاً بحاجة إلى اكتشافها وعيشها فعلاً، ليكون بإمكاننا أن نرتقي بإنسانيتنا الحقيقية. فالمسألة ليست القيام بأعمال خيرية للمنبوذين فحسب؛ بل الانفتاح أمامهم معرضين أنفسنا للأذى لنتمكن من استقبال الحياة التي بإمكانهم تقديمها لنا؛ يعني أن نصبح أصدقاءهم. إذا بدأنا بضم الناس الذين يفتقرون إلى الامتيازات التي لحياتنا، وأقمنا علاقات قلبية معهم، فانهم سوف يغيرون أشياء في داخلنا، وسوف يطالبوننا بالثقة المتبادلة، وان نعطيهم الوقت لنستمع إليهم، وان نكون مع بعضنا البعض، وسيدعوننا للخروج من فردانيتنا والتخلي عن حاجتنا للقوة في الانتماء إلى بعضنا البعض، والانفتاح تجاه الآخرين، وسيكسرون جدران التعصب والجدران الحامية التي ولدت النبذ. ثم سيبدأون بالتأثير على تنظيماتنا البشرية، كاشفين عن طرق جديدة في الوجود والاستمرار معاً.

وعليه يتحول الطريق ذو الاتجاه الواحد، حيث يقول الذين فوق للذين تحت: ماذا تفعلون؟، وكيف تفكرون؟، وكيف انتم؟؛ إلى طريق ذي اتجاهين، حيث نستمع الى ما يريد "اللامنتمون"، "الغرباء" قوله، ونقبل ما لديهم ليعطونه، وهو فهم ابسط واكثر أصالة لما يعنيه أن يكون المرء إنساناً حقيقياً. فإذا بدأنا ننظر إلى الناس في الأسفل كأصدقاء، كأناس يمتلكون عطايا للآخرين، وعندما

يتحول الهرم الاجتماعي بمتنفيذه الأقوياء وعارفيه وأثريائه في القمة، إلى مكان للانتماء فحينئذ يجد كل شخص مكانه، وحيث نعيش في ثقة متبادلة. هل هذه رؤيا طوباوية؟ لو عشت على المستوى الصميمي، في العوائل، الجماعات، وغيرها من أماكن الانتماء، فان هذه الرؤيا تستطيع ان تتغلغل تدريجيا في مجتمعاتنا وتحولها إلى مجتمعات إنسانية.

أنا لا اقترح على الإطلاق انه يتوجب على كل واحد منا أن يستقبل في بيته كل المهمشين في الحياة. إنما اقترح ان كل واحد منا بمواهبه ونقاط ضعفه، بقدراتنا واحتياجاتنا، لو فتح قلبه لعدد قليل من الناس ممن يختلفون عنه وأقام علاقة صداقة معهم، واستمد منهم الحياة، فان مجتمعاتنا سوف تتغير. هذا هو طريق القلب.

القلب

إن القلب ؛ القلب المجازي، أساس كل العلاقات، هو الشيء الأعمق في كل واحد منا. انه قلبي الذي يربط نفسه بقلب آخر، انه يخرجنا من الانتماء المقيد، ذلك الانتماء الذي يخلق النبذ، والذي يدفعنا إلى لقاء الآخرين وحبهم كما هم. والطفل الصغير كله قلب، انه يزدهر بالعلاقات. وعندما يكون في اتصال مع شخص يثق به يحس بالأمان، ويمتلك هوية، ويكون شخصا فريدا ومهما. وهكذا يكون مخلولا، لما تبقى من حياته، لان يفتح أمام الآخرين، ولان يُضمّن هذا الإحساس بالتحويل في عمله.

ان يعمل المرء يعني ان يكون نشيطا، وفعالا، ومتعاوننا مع الآخرين. المشاركة تعني قابلية التعرض للانجرار والأذى وتعني الرقة كذلك؛ والمشاركة تعني ان يفتح المرء قلبه ومشاركة (الآخر أو الآخرين) بآماله وآلامه، حتى الفشل والانسار.

إذا كنت منكسر القلب، يصبح شعوري بالانسحاق سهلا، ويصبح من السهل أن أقع فريسة الاكتئاب، ومن ثم تتعدم قدرتي على العمل. أو قد ارفض كل العلاقات وارتمي في العمل واقضي فيه كل وقتي بصورة لا ترحم. أما إذا كان قلبي راضيا رَضِيًا فانه سيشع من خلال عملي.

لقد رأينا جميعا القدرة التحويلية للحب. إذ يرى أسمى الناس قلوبا وأكثرهم مرارة الحياة بطريقة جديدة عندما يقعون في الحب، وكذلك عندما يعرفون بأنهم محبوبون. من السهل معرفة المحبين من النساء والرجال. تبدو الميول العدوانية والإكتنابية وقد اختفت. ويتحركون نحو انفتاح رقيق، بدلا من حماية أنفسهم وراء الحواجز، وينفتحون ويتحولون إلى أناس يرحبون بالآخرين. وتظهر بوضوح حرية وطيبة ورقة جديدة.

ما أريد أن أقوله هو أن الكائن الإنساني اكثر من مجرد قوة أو إمكانية للتفكير والأداء. هناك شخص لطيف من الحب مخفي في الطفل الكامن في كل بالغ. القلب هو المكان الذي نلاقي فيه الآخرين، نعاني معهم، ونفرح معهم. انه المكان الذي نستطيع فيه أن نتعرف عليهم ونتضامن معهم. كلما أحببنا لا نعود نكون لوحيدنا. فالقلب هو مكان توحدنا مع الآخرين.

طريق القلب ينطوي على اختيار. بإمكاننا أن نختر هذا الطريق ونعامل الناس كبشر وليس كآلات. بإمكاننا أن ننظر إلى الطباخ في فندق لا

كمجرد شخص يستلم أجراً ليطبخ طعاماً جيداً لكن نراه كشخص يمتلك قلباً، لديه أطفال، كشخصٍ يعيش علاقات مؤلمة بحاجة إلى اللطف والفهم. معاملة الأشخاص كبشر يعني أننا مهتمون بهم، وإننا نستمع إليهم ونحبهم ونريدهم أن يزدادون كمالاً، وحرية، وصدقا، ومسؤولية.

الكلام عن القلب ليس كلاماً عن عواطف وانفعالات غامضة، بل يكمن في مركز وجودنا. في مركز القلب، نعرف جميعاً أن بالإمكان تقويتنا وتحويلنا لزيادة صدقا وحياء. بإمكان قلوبنا ان تتحول لتصبح قاسية كالصخر أو رقيقة كاللحم. علينا أن نخلق أوضاعاً تتقوى في قلوبنا وتتغذى. بهذه الطريقة يصبح أكثر حساسية تجاه الآخرين، وتجاه حاجاتهم، وصرخاتهم، وهمهم الداخلي، ورقبتهم، وعطاياهم الحبية. إلا أن قلوبنا ليست نقية تماماً أبداً. بإمكان الأشخاص أن يصرخوا طالبين ان يُحبوا، خصوصاً إذا كانوا محرومين من الحب في فترة طفولتهم. هناك علاقات "حبة" غير صحية لأنها عبارة عن تهرب من الحقيقة وتهرب من المسؤولية. هناك صداقات غير صحية لان أحد الطرفين ضعيف وخائف يهاب تحدي صديقه. وهذه دلائل نشخص من خلالها القلب غير الناضج. والقلب الذي يفتقر إلى النضج يستطيع أن يقودنا إلى علاقات تدمره ومن ثم إلى الاكتئاب والموت.

لا يستطيع القلب أن يخوض طريقاً غير آمن، إلا بعد أن يكون قد نضج في الحب، ووضع ثقته في الله. القلب هو الذي يتخذ القرارات الحكيمة، لأنه تعلم التمييز والمخاطرة وتلك تعطي الحياة. بإمكان القلب الناضج في الحب أن يلتقي الناس داخل وخارج مناطق الانتماء. بإمكانه أن يلتقي بالمنبوذين. والقلب الناضج هو الذي يساعدنا في اكتشاف الإنسانية المشتركة التي تربط

بيننا جميعاً، تلك الرابطة الأقوى من كل الأواصر التي تربطنا معاً كجزء من مجموعة معينة. فالقلب إذاً ليس بحاجة إلى التحكم بالآخرين. القلب الحر يحرر الآخرين.

إن العلاقات القلبية التي تتم بحضور الله أهم من كل استحسان من جماعة أو مجتمع. الانتماء إلى جماعة مهم، إنها " الأرض " التي ننمو فيها. أحياناً يتوجب أن نتجاوز استحسان المجموعة بل ونتقبل الرفض والنبذ، إن لزم الأمر ونتبع ما أطلق عليه الأقدمون " علم القلب "، الذي يعطي القوة الداخلية لوضع الحق المستمدة معرفته من الخير، ونضعه في منزلة فوق الحاجة إلى استحسان وموافقة الآخرين. علم القلب يسمح لنا أن نعرض مناطق ضعفنا للتجربة مع الآخرين، لا أن نخافهم بل نستمع إليهم، نرى جمالهم الإنساني وقيمتهم، أن نفهم كل مخاوفهم، وحاجاتهم، وآمالهم، بل ونتحداهم حتى إن لزم الأمر. أنه يتيح لنا فرصة قبول الآخرين كما هم وأن نؤمن بإمكان نموهم ليصبحوا أكثر جمالاً. إن القلب الناضج لا يسعى إلى فرض التصديق على الآخرين، إنه لا يسعى إلى فرض الإيمان. القلب الناضج يستمع إلى القلب الآخر ويعرف ما هو مدعو إليه. القلب الناضج لا يعود يحكم أو يدين. إنه قلب الغفران. ومثل هذا القلب يكون مليئاً بالعاطفة، عاطفة ترى حضور الله في الآخرين. إنه قلب يترك القيادة لهم ليأخذوه إلى الأرض الحرام، الأرض غير المجاز دخولها. والقلب يدعونا لننمو، ونتغير، ونتطور، ونصبح أكثر رقياً من الناحية الإنسانية.

طريق القلب

كانت " السفينة " المكان الذي اكتشفتُ فيه طريق القلب، كطريق يضع الناس في المقام الأول، وطريق للدخول في علاقات شخصية. هذه الطريقة في التعامل مع كل فرد، في إقامة علاقة لطيفة وعطوفة مع كل شخص لم تكن طريقا سهلا لي. التحقت بالبحرية وأنا صغير جدا، حيث كنت في الثالثة عشرة فحسب، أنه عمر يثير الاندهاش. وقد أنصب كل التدريب الذي حصلته على مساعدتي في أن أكون سريعا، مؤهلا، وكفاء، وقد أصبحت ضابطاً، وفيما بعد، بعد أن تركت البحرية، كنت شخصا صلبا، وكان اهتمامي منصبا على: الكفارة، والواجب، والصلاة، وعمل الخير للآخرين والدراسات الفلسفية واللاهوتية. كانت طاقتي موجهة لتحقيق الأهداف.

لقد كانت "السفينة" منذ البداية، في سنة 1964؛ مدرسة تعليم خبرة حقيقية لي. فلقد أدخلتني إلى عالم العلاقات البسيطة، علاقات اللهو والضحك. وأعادتني إلى جسدي، لأن المعاقين العقليين، معاقين بالنقاشات الفكرية أو المجردة. وبالطبع هناك أوقات يكون النقاش معهم جديا، حيث نصح بحاجة إلى الكلام عن وقائع الحياة الأساسية، مثل الولادة، والجنس، والصلاة، والعدل. وهم يحتاجون إلى أوقات يعملون فيها ليعرفوا ما يستطيعون إنجازه. أما أوقات الفراغ فمركزة على اللهو، اللعب، والاحتفال. ان حياتهم ليست مركزة على العقل أو الفكر. وعليه فقد كان المعاقون عقليا هم الذين أخرجوني من عالم الجد ليدخلوني إلى عالم الاحتفال، الحضور، والضحك: عالم القلب.

عندما نكون في حالة شركة مع أشخاص آخرين، ننفتح أمامهم ونصبح عرضة لأن يُلحق بنا الأذى منهم. نكشف عن حاجتنا ونقاط ضعفنا لبعضنا البعض. تدعونا القوة والفتنة إلى الإعجاب ولكنها تدعونا كذلك إلى نوع من الانفصال، نوع من المسافة العازلة، تُذكر بما لسنا عليه، وبما لا نستطيع. من الناحية الأخرى تدعونا مشاركتنا لنقاط ضعفنا وحاجتنا إلى " التوحد " معا. نحن نرحب بمن يحبوننا في قلوبنا. نكتشف في هذه المشاركة أعمق جزء من كينونتنا: حاجتنا إلى الحب وحاجتنا إلى شخص يثق بنا ولا يهتم أدنى اهتمام بشأن قدرتنا على العمل وفطنتنا واهتمامنا. عندما نكتشف بأننا محبوبون على هذه الشاكلة، تسقط الأفتعة والحواجز التي تختفي وراءها، وتسري فينا حياة جديدة. فلا نعود بحاجة إلى إثبات جدارتنا، ونصبح أحرارا في أن نكون ما نحن عليه حقا. ونكتشف تكاملا جديدا، ووحدة داخلية جديدة.

أنا أحب مراقبة الأطفال الصغار وهم يلعبون ويثرثرون فيما بينهم. أنهم لا يهتمون بما يظنه الناس بهم، ولا يهتمون بمحاولة الظهور بمظهر الأذكاء والمهمين. الأطفال يعرفون أنهم محبوبون وأحرار في أن يكونوا على ما هم عليه، وبلوغهم مرحلة المراهقة والبلوغ يصبحون أكثر وعيا بذواتهم، ويفقدون جزءا من حريتهم، وقد يستعيدونها فيما بعد عندما يكتشفون من جديد بأنهم محبوبون ومقبولون كما هم، وعندما لا تعود تتسلط عليهم فكرة ما يفكر به الآخرون عنهم.

كثيرا ما يخبرنا المعلمون الروحيون في الكتب المقدسة قصصا تكشف الحقائق وتوقظ القلوب. فقد تكلم يسوع بالأمثال، أما (الحسيديين) * اليهود

ومعلمي الصوفية فيحكون القصص. والكتب المقدسة الهندية مليئة كذلك بالقصص. فيبدو أن القصص تجعل طاقات الحب تستيقظ من جديد، فهي تخبرنا بحقائق عظيمة وبسيطة في الوقت عينه، وتخبرنا بأشياء شخصية فتجعلنا

* (الحسيلم/أو الحسيديين: جماعة الاتقياء الذين قاوموا غزو الثقافة اليونانية (الهيلينية) لحياتهم، وقد التحق بعضهم بالماكيين في نزاعهم ضد اليونان، رغم أنّ بعضهم كانوا دعاة سلام، ولكن معظمهم كانوا أتباعاً أمناً للشريعة) (المترجم)

نسعى إلى النور. إنّ للقصص قدرة غريبة للجذب. فعندما نحكي قصصاً؛ نلامس قلوباً، أما عندما نتكلم عن النظريات والأفكار؛ فقد يستوعبها العقل ويتمثلها، إلا أن القلب يظل غير متأثر.

أن نشهد، يعني أن نحكي قصتنا. في "السفينة" إذ نحب أن نحكي قصصنا وكيف تغيرنا عن طريق المعوقين، قصصا تكشف حبهم وبساطتهم وتحكي عن شجاعتهم، وألمهم، وقربهم من الله. من الصعب أن نجذب الاهتمام إذا تكلمنا في العموميات عن الناس المعوقين، فالناس ليسوا مهتمين على الدوام. أن القصة التي تلامس شغاف مستمع هي قصة شخص معين.

عندما نسمع قصص أشخاص آخرين عاشوا مثلنا وكيف ارتقوا من الحضيض ووجدوا الرجاء؛ يعم الرجاء قلوبنا نحن أيضاً. وقصص التحول من الموت إلى الحياة تزرع الرجاء في القلوب أيضاً.

لأحكي لكم بعض القصص: لأتكلّم أولاً عن أنطونييو. لقد جلب أنطونييو العديد من الناس إلى طريق القلب. جاء أنطونييو إلى جماعتنا في تروسلو عندما كان في العشرين من عمره، وبعد أن قضى سنين عديدة في مستشفى. لم

يكن باستطاعته لا السير ولا الكلام ولا استخدام يديه، وكان بحاجة إلى زيادة في الأوكسجين ليتنفس. كان رجلا ضعيفا هشا، إلا أن ابتسامه لا مثيل لها كانت ترسم على وجهه بالإضافة إلى عينيه الجميلتين البراقنتين. ولم يكن يعاني من أي غضب أو اكتئاب. وهذا لا يعني بأن الانزعاج لم يكن يجد إليه سبيلا بين الحين والآخر، وخصوصا إذا كان ماء استحمامه باردا جدا أو حارا جدا، أو إذا نسي المساعدون أمره. المهم في الأمر هو أنه تقبل حدوده وعوقه، لقد تقبل نفسه كما هو بالضبط، ولم يكن بإمكان أنطونيو أن يحب عن طريق الكرم، بإعطاء الأشياء للناس أو بأن يعمل لهم هذا الشيء أو ذاك، فقد كان هو نفسه ذا حاجات كثيرة، يعيش بحب ملؤه الثقة. وبهذه الطريقة كان يلامس شغاف قلوب العديد من الناس. وعندما يحب الإنسان وقلبه مملوء بالثقة، لا يعطي للآخرين أشياء، بل يعطي نفسه وبذلك يدعو إلى شركة القلوب.

لامس أنطونيو شغاف قلوب العديد من المساعدين الذين جاءوا ليعيشوا في بيته وأيقظها، وقد قادهم في طريق القلب. وكثيرا ما كانوا يقولون لي ذلك بكلمات كهذه: ولقد غير أنطونيو حياتي، وأخرجني من مجتمع يسوده التنافس حيث يتوجب على المرء أن يكون قويا وعدوانيا، وأدخلني عالم الرقة والتبادل المشترك، حيث يستطيع كل شخص، سواء أكان ضعيفا أو قويا أن يمارس مواهبه.

حدث أخيرا أن استلمت رسالة تقول في جزء منها: قبل أسبوعين مات أخي. كان الأخ الأكبر أصيب قبل 6 سنوات بنوبة قلبية تضرر من جرائها جزء من دماغه، وقد أمضى السنوات الأخيرة من حياته في بيت الرعاية الصحية. لقد حضر جنازته العديد من الممرضين ومن كادر المستشفى وقد عبروا عن غم

عميق جعلني أتأثر في صميمي. قبل ست سنوات، عندما كان أخي يكافح الموت، غضبت على الله، إذ كيف يمكن أن تكون هذه نهاية شخص كان يفرح كثيرا من الموت على هذه الشاكلة؟ لقد أعطى الكثير للآخرين في سنيه الأخيرة أخبرتني إحدى الممرضات قائلة: " كنت دائما أذهب للقاء بيتر، وعندما كنت أشعر بالانقباض، كانت روحه ترفع من معنوياتي."

فما الذي يحدث فعلا لهؤلاء المساعدين عندما كانوا يقيمون مع أنطونيو أو أشخاص مثله هل هي علاقة قلب إلى قلب؟، وما الذي فعله بيتر للممرضة؟. إن أشخاصاً مثل أنطونيو وبيتر خبراء في تعليم طريق القلب. وإنه الطريق الوحيد المتاح لهم كما هو الحال مع الأطفال والعاجزين الذين طعن العمر بهم، وفقدوا بعضاً من مواهبهم، لقد فقدوا التجريد واللغة العقلانية و صاروا بعيداً عن تناولهم؛ فيصبح طريق القلب الطريق الوحيد للتواصل.

كان هنري نووين Henri Nouwen قسيساً ألمانيا اعطى العديد من سني حياته لجماعة السفينة بالقرب من تورنتو. وكان مرشداً روحياً للعديد من في جماعتنا، ومن خلال كتبه كان كذلك للعديد ممن لم ينتموا إلى جماعتنا. يتكلم في واحد من كتبه الأخيرة " آدم " عن حياته وكيف تحولت من خلال اتصاله برجل يعاني من إعاقات شديدة جسمانية وعقلانية.

" كان رجلاً أوصلني أكثر من أي شخص آخر بذاتي الداخلية، وأوصلني بجماعتي وبالله هذا هو الرجل الذي طلب مني أن أعني به، إلا أنه أخذني إلى داخل حياته وإلى داخل قلبه بطريقة عميقة لا تُصدق. كان هو المعزي والمعلم والمرشد، ما كان باستطاعته أن ينطق كلمة واحدة يقولها لي، ولكنه علمني أكثر من أي كتاب، أو أستاذ أو أي مرشد روحي."

التحرر من الملائمة

ذهب عدد من أعضاء جماعتنا قبل سنوات قليلة، في حَجِّ إلى روما. وقد حصلنا على مقابلة مع البابا يوحنا بولس الثاني. وبينما كنت في انتظار وصوله سار فابيو، وهو شاب معوق، وصعد السلالم وجلس في كرسي البابا. وكان من الواضح أنه أفضل كرسي في الغرفة، الأمر الذي جذب فابيو إليه. وحوار الأساقفة الموجودون هناك فيما يفعلون. إلا أن أحد المساعدين ساعد فابيو في اختيار كرسي آخر كان جيدا كذلك.

ما كنت لأجرؤ أبدا على فعل ما فعله فابيو. وكما هو الحال مع معظمنا، أنا أميل إلى التطابق مع ما متوقع مني وأخاف من كسر المعايير أو الخروج على طاعة رؤسائي. فهل يوجد في داخلي خوف من أن يعتبرني الآخرون مذنبا إذا خرجت على المعايير؟.. أم أخاف من أن يصرخ أحدهم في وجهي ساخطا؟.

يحب بعض الناس أن يهزوا المركب، أن يفعلوا غير المتوقع، لمجرد أن يصدموا مشاعر الآخرين ويجذبوا انتباههم. إلا أن المعوقين لا يخرجون عن المعايير ليصدموا مشاعر الآخرين. فتلك هي طريقة حياتهم، التي تسري من احساساتهم الحدسية النابعة من الحرية الداخلية.

يمتلك المعوقون حرية الغضب ومن ثم طلب السماح بعد أن يدركوا أنهم آذوا أحدهم. وينتهي الأمر عند ذلك الحد. ولا يوجد هناك نار خامدة مستعدة

للتأجج ثانية عند أي استفزاز. حيث أن مصداقية ندمهم وأسفهم الحقيقية تلامس شغاف قلبي دائما.

هل يعود السبب في ذلك إلى أن لديهم إدراكا ضئيلا بالزمن والتاريخ، باللبام الأخلاقي الذي تضعه الذاكرة على فعالياتنا؟. ان الكثير من فعالياتنا الحالية تتحكم بها ذاكرة الأشياء الماضية ونتائج أفعالنا السابقة. إلا أن العديد من المعوقين العقليين ليسوا أشخاصا ينتمون إلى الماضي أو حتى إلى المستقبل، بل أبناء لحظتهم. فهم لا يمتلكون مخططات كبيرة للغد. فالمخططات تفيد الأشخاص الذين يمتلكون استقلالا وقابلية أكبر على إدارة حرياتهم كما يريدون، أما المعاقين فلا يصرخون طلبا للقوة أو السلطة أو النجاح، حيث تُستخدم طاقاتهم في البحث عن دفاء العلاقات. ألاحظ كيف تتركز عيون الكثير منا على الساعة، متذكرين لقاءنا الثاني، أو محاضرة نلقيها، ومواعيد لقاء. أما المعاقين فلا يبدو أنهم مربوطون بالزمن بنفس الطريقة. يميلون لأن يعيشوا اللحظة أكثر، مرفهين عن أنفسهم أحيانا، ساخطين أحيانا، وعادة ما يمنحون ثقتهم للأشخاص الذين يقدرونهم.

سقوط

الأحكام المسبقة

عندما يصل المساعدون إلى جماعتنا، غالبا ما يكونون أشخاصا تملأهم الأحكام المسبقة للمجتمع التنافسي الذي ينتمون إليه. ثم يكتشفون أنطونيو بقلبه الذي ينضح حبا، ولطافة، وقبول الذات، وتجاهله للحظة

الحاضرة، كلها تكون مخبوءة وراء ضعف وانكسار جسده. عندئذ يكتشفون بوضوح أكبر افتقارهم إلى المرونة، والحب، بل وحتى قسوتهم، بل وربما اكتشفوا قسوة كنيستهم ويبدأون بالإدراك بأن ارتقاءهم إلى إنسانيتهم ليس مسألة اتباع أساليب وسلوكيات الآخرين، والتطابق والتماثل مع المعايير الاجتماعية أو بالإعجاب والاحتراف بهم في الجماعة الهرمية الترتيب، وإنما يتم بالتححر والاقتراب من الذات الحقيقية أكثر، واتباع المرء لوعيه الأعمق، والسعي للحصول على الحقيقة، وحب الناس كما هم.

النقطة التي يتم عندها الانضمام هي التصديق بأن كل واحد منا يمتلك أهمية، فرادة، وقدسية. لا نستطيع أن نقيم علاقة مع آخرين ونبدأ في ضمهم إلى حياتنا ومجتمعنا إلا إذا امتلكننا هذا الإيمان الابتدائي. هذا يعني أن أحدنا يعطي للآخر ولادة جديدة عندما نحب ونحترم بعضنا البعض وعندما نتكشف قيمنا لنا من خلال حب الآخرين. نحن ننغلق على أنفسنا إذا نُظر إلينا وكأننا بلا قيمة. العدل أكثر بكثير من مجرد اتباع القانون، عدم إلحاق الأذى بالناس، أنه يعني كذلك احترام وتقييم كل فرد.

العدل ينبع من القلب. فإذا كنا جميعاً نصرخ طالبين العدل، وإذا كنا جميعاً نستاء جداً من أعمال الظلم والجور، ألا تكشف صرخاتنا هذه عن إنسانيتنا؟ فحاجتنا الأساسية إذن هي نفس الحاجات الأساسية لكل البشر الآخرين. نحن بحاجة إلى الناس الآخرين الذين يستدعون من دواخلنا كل ما هو الأجل فينا، بالضبط كما أننا بحاجة إلى استدعاء كل ما هو الأجل في الآخرين.

عندما نقيم علاقات شخصية مع الأشخاص المختلفين عنا أو مع الأشخاص الذين يقفون على هامش الجماعة، ندهش من زيادة قدرتنا في انتقاء ثقافتنا الخاصة بنا. نبدأ برؤية التعصبات العميقة الموجودة في ثقافتنا. لأعطيك مثالاً:

التقيت قبل فترة قصيرة رجلاً كان قد قَدِمَ إلى جماعتنا قبل سنين قليلة، وهو ينحدر من عائلة جزائرية ذي عوق ذهني خفيف. وقد مكنته قابلياته في العمل من العثور على عمل وإعالة نفسه بنفسه. تقابلنا في محطة القطار وسافرنا معا إلى باريس. عندما كنت معه لاحظت حساسيتي تجاه نظرة الناس إليه، كنت أحس الخوف والامتعاض المنبعث من عيونهم بسبب من ملامحه الشمال أفريقية.

عندما نقيم علاقة مع المنبوذين من الجماعة، لا نتمكن من مشاهدة الناس كأناس ونشاركهم في كفاحهم من أجل تحقيق العدالة، والعمل من أجل الشركة، وإيجاد أماكن للانتماء، بل وتطور الأدوات الانتقادية لمشاهدة الخطأ في مجتمعنا.

هذا الخفض للحواجز الداخلية، التي هي أحكامنا المسبقة، عامل مهم في نمونا باتجاه الحرية الشخصية. ليس من السهل أن ننظر بعين انتقادية إلى ثقافتنا. الهوية الفردية مرتبطة بقوة في ثقافتها بحيث أن أي شكل من أشكال الحكم الانتقادي في هذا الصدد يمكن أن يهدد استقرار عالمنا الداخلي. نحن مثل الأطفال الذين وضعوا كل ثقتهم في والديهم، وعندما نرى والدينا يخطئون، ينهار عالمنا، ونفقد نقاط الدلالة ونشعر بالضياع. ان الحكمة تنمو وتزداد

عندما ننظر بعين انتقادية، لا إلى أنفسنا فحسب، بل وإلى المجموعة التي ننتمي إليها كذلك. عندها فقط تتناوبنا الرغبة في العمل من أجل التغيير. إن مصادقة المهمشين والمنبوذين فعل نفي ذاتي من كل العالم، أنه فعل تحرير وهو فعل من أفعال الحرية. إنه طريق للنمو الشخصي حيث يعلن المرء عن مجموعة جديدة من القيم. أنها الخطوة الأولى نحو العيش ضمن قيم جديدة إلا أنها لا تشكل تحولاً في حد ذاتها.

كي أصبح إنساناً

زافييه ليبيشون Xavier Lepichon جيولوجي فرنسي شهير، عضو أكاديمية العلوم وأستاذ في كلية (دو فرانس). يبين في كتابه الرائع " جذور الإنسانية The Roots of Humanity:

" إن البشر خلال مراحل التطور البشري المختلفة أصبحوا أكثر إنسانية كلما انفتحوا أكثر تجاه الضعيف وتجاه واقعية المعاناة والموت".

وهذا ينطبق على خبرتي الشخصية. عندما يفتح القلب الإنساني وتملأه العاطفة، نكتشف وحدتنا الأساسية، ونكشف إنسانيتنا المشتركة. قد يبدو تضاداً عندما أقول بأن الناس المعوقين علموني معنى أن يكون الإنسان إنساناً حقاً وأنهم قادوني إلى رؤية جديدة للمجتمع، مجتمعاً أكثر إنسانية. معهم ومن خلالهم أكتشف أفراح: الاحتفال، الحب، العمل والاشتراك بالاحترام المتبادل والضحك. والآن أدرك بشكل أعمق كيف تتبع الطاقة الروحانية من كوني إنساناً، بالأحرى كم أن مصدر الروحانية هو التحقق الكامل

للإنسان، وبذلك تشكل حياتنا وتشكل إنسانيتنا. لقد اكتشفت قيمة علم النفس والطب النفسي، واكتشفت بأن تعاليمهما يمكن أن تحل عقدا في داخلنا وتسمح للحياة بأن تجري ثانية وتساعدنا في الوصول إلى إنسانية أرقى وحقيقية أكثر. لقد اكتشفت بنفسى كيف يستطيع الدين أن يفتحنا تجاه الكون، وأن لنتمكن من حب البشرية بأجمعها، وبالأخص تجاه مصدر كل الحياة والحب، تجاه لقاء مع الله. أجد أن هذا اللقاء مع الله لا يأتي في المقام الأول بالنسبة لمن يريد أن يكون الأذكى في منزلة الشرف الأعلى، ولكنه يأتي في المقام الأول بالنسبة للضعفاء والمتواضعين والمنفتحين على الحب، بالنسبة للذين اختاروا أو يختارون طريق القلب.

البساطة

الرقعة هي لغة جسد الأم وهي تحضن طفلها، وعندما تلامس الممرضة جراح المريض، أو عندما يقوم المساعد بغسل الشخص المصاب بعوق شديد. منذ وقت قريب، وفي دير بوذي، راقبت راهبة وهي تقدم لنا الطعام والشاي بركة كبيرة جدا؛ كانت تتصرف مع الطعام وكأنه شيء مقدس كاشف عن حضور الله. وقد حصل ذلك بالفعل، لأنه كان يعامل كذلك. الرقعة هي الجسد وهو يتكلم باحترام، وبذلك يعطي الجسم إجلالا لكل ما يلامسه، أنه يُجَلُّ الواقع. لا يتصرف وكأن على الواقع أن يُغير أو يمتلك، الواقع يعود إلى الإنسانية والله.

أليست هذه هي الطريقة التي بموجبها يتوجب علينا إقامة علاقاتنا مع كل الكائنات الحية: النباتات، الحيوانات والأرض!.

يتكلم أشعيا عن المسيح قائلاً:

لا يصبح. ولا يرفع ولا يُسمع في الشارع صوته.

قصة مرضوضة لا يقصف. وقتيلة مدخنة لا يطفىء... (أشعيا 42: 2 - 3)

فبالرقة ينعدم الخوف. إنها ليست ضعفاً، ولا افتقاراً إلى القوة، وليست تصرفاً سمجاً، بل مملوءة قوة واحتراماً وحكمة. في الرقة نعلم كيف ومتى نلمس شخصاً لأن يكون ولأن يتعافى.

من خلال لقاء مع رافائيل وفيليب، أول شخصين رحبتُ بهما في "السفينة"، ومن خلال العديد من الآخرين من معلمي بين المعوقين، تعلمت بعض الأساليب الصغيرة كيف اسكن جسدي وانظر إليه ليس كسبيل للعلاج بل طريقة اكشف بها قلبي وطريقة أعيش بها حياة مشتركة مع الآخرين.

ألمحت إلى امتلاك الجماعة القوة على كشف الجمال والقيمة في الآخر، وكيف أنها تحررنا لنكون نحن حقاً، إلا أن هذه المشاركة تطالبنا بالإنصات باحترام للغة الآخر غير المنطوقة. وأقول غير المنطوقة، لأن في عالم الصداقة والعلاقة عادة ما تسبق الإشارات الكلمة. أما الكلمة فتستخدم لتأكيد الإشارة وإعطائها أهميتها. أرى الآن أن هذه المشاركة مع المعوقين من الناس وما تتطوي عليه من رقة، قد ساعدتني في العثور على كمال داخلي جديد، العثور على اتحاد بين عاطفتي وذكائي.

طريق القلب هو السبيل إلى شفاء أعماق عاطفتنا وحاجاتنا، من خلال المشاركة وعطاء الذات. إلا أن هذا الشفاء لا يتم بصورة تامة أبداً. فالصراع سيبقى موجوداً على الدوام. إلا أننا إذا كنا يقظين وممثلين بالصلاة، مركزين على الحقيقة لا تغرينا الثروات، والقوة، والشهرة، والرغبة، وغيرها من الحاجات السيكولوجية، عندئذ سنتمكن من الاستمرار في طريق الشفاء.

قبول الذات

علم انطونيو العديد منا في "السفينة" الحاجة إلى قبول أنفسنا كما نحن بالضبط. وبالرغم من كل ضعفه وهشاشته، ومعاناته من حالات عوق متعددة، إلا أنه كان رجلاً يبعث الفرح والبهجة في النفوس. هذا الفرح كان يشع من عينيه المبتسمتين ووجهه، كاشفاً عن سلام وهدوء داخليين.

نحن الذين لدينا القوة والمكانة الاجتماعية نمتلك أساليب حاذقة في إخفاء عوقنا الداخلي، وإخفاء الصعوبات في علاقاتنا، وظلامنا الداخلي وعنقنا، وكأبتنا وافتقارنا إلى الثقة بالنفس. عندما يكون كل شيء على ما يرام يمكن أن في شرك الكبرياء، وعندما نواجه الفشل والصعوبات، يمكن أن نصبح ضحية تبخيس الذات والاكتماب.

كم من الصعب علينا أن نتقبل حدودنا وعوقنا مثلما نتقبل مواهبنا وقدراتنا. نشعر أن الآخرين إذا رأونا على حقيقتنا فأنهم سوف ينبذوننا. وعليه نخفي نقاط ضعفنا. لقد اختبرت حدودي في لحظات معينة، أوقات كان السخط

والعنف يثوران في داخلي أثناء تعاملي مع أشخاص معينين من المعوقين. ربما لأنني تصورت انهم كانوا يستفزونني، ربما كانت معاناتهم وإحساسهم بالوحدة تدعوني إلى بذل كل اهتمامي في وقت لم يكن ذلك باستطاعتي، وربما كان ذلك بسبب فشلي في التخفيف من معاناتهم وصراخهم. أو ربما كان الأمر اعمق من كل هذا: ربما أيقظت معاناة أولئك المعاقين عقليا معاناتي أنا، المعاناة المخفية في داخلي منذ الطفولة.

يستدعي بعض المعوقين الرقة التي في داخلي؛ وآخرون يستخرجون المعاناة، الخوف، والسخط الذي في داخلي. في عالم يعج باستمرار بالعلاقات المتوترة، تحس بسرعة بحدودك الداخلية، ومخاوفك والعقبات التي تقف في سبيلك. تستطيع ان تحس الغضب يثور في داخلك. في أوقات تعبي وانشغالي، كان ألمي الداخلي ومعاناتي يثوران ويصعدان بسرعة اكبر إلى السطح. في أوقات الضيق، كان صعبا علي الانفتاح على الآخرين، والترحيب بهم والصبر عليهم. كثيرا ما كنت اصبح في حالة مواجهة مباشرة، مع عوقي، حدودي، وفكري الداخلي. لم أجد الأمر سهلا دائما، وخصوصا عندما كان فشلي جليا شديد الوضوح.

ولكنني بدأت أدرك أنني ولكي يكون بإمكانني قبول عوق الآخرين ومساعدتهم في النمو، كان أساسيا علي ان أتقبل عوقي أنا، إلا أنني تعلمت شيئا عن شخصيتي. أن أتعلم تدريجيا، أن أتقبل وجود المناطق المظلمة في داخلي والعمل للتخفيف من هيمنتها وتسلطها علي.

الطريق إلى الحنان

وأنا انظر إلى الوراء إلى حياتي، مختفياً في الفجوات السرية في ذاكرة قلبي، اكتشف أو ربما اشعر بالأشخاص الذين يتقبلونني ويحبوني كما كنت دون اعتراضات. انهم لم يحكموا عليّ، لقد شعرت بوجود حب غير مشروط. أحد هؤلاء الأشخاص الذين حرروني لأكون كما هي ذاتي الحقيقية وأكون من أنا فعلاً، كان الأب توماس فيليب. لقد قابلته مؤخرًا بعد استقالتي من العسكرية في عام 1950. عشت معه ومع غيره ممن يبحثون عن الحقيقة وعن حياة ذات معنى، في جماعة صغيرة كان قد أسسها خارج باريس بعد سنوات من الافتراق، تقابلنا مرة أخرى في عام 1963، عندما كان القسيس المسؤول عن مؤسسة خاصة بالمعوقين العقليين. وكان هو الذي عرفني على المعوقين العقليين وساعدني على التعرف على قيمتهم وأهميتهم في العالم، لأنهم أشخاص اتخذوا طريق القلب طريقاً لهم. وقد شجعني لأبدأ مشروع "السفينة" وعاش معنا في الجماعة إلى حين موته تقريباً.

كان الأب توماس رجلاً إتخذ طريق القلب طريقاً له. كان يحب الناس وقد ساعد العديدين على اكتشاف ذواتهم الحقيقية. عندما اختبر مشاعري تجاه الأب توماس اليوم في ذاكرتي القلبية، اشعر أن مياه الغفران والخير تسري منه، مياه تنعش وتساعدني في استعادة ثقتي بنفسي وباسمي السري، يعني مهمتي

في الحياة، السبب الذي من أجله ولدت. كان الأب ثوماس حرا وكانت حريته حقيقية، وبدوره حرر آخرين.

إن امتلاك قلب يسمح لمياه العاطفة والفهم والغفران بالجريان إلى الأمام دليل على نضوج الشخص. ربما يحالفنا الحظ في حياتنا مرة ونقابل شخصا كهذا، سوف نحس بأن نفسنا تتطهر، ويتأكد وجودنا، سوف نكتشف اسمنا السري. عندها سنواصل السير نحن أيضا باتجاه المزيد من التحرر ونسمح للحياة بالجريان إلى داخل الآخرين، لتشفاهم ونجد الشفاء من خلالهم.

أحس بالتأثير عندما أقرأ النبي أشعيا. أنه يقول بأننا لنُسعد الله يعني:

" أن تُحَلَّ قيود الظلم

وتُفك مرابط النير

ويطلق المنسحقون أحرارا

وينزع كل نير عنهم

أن تفرش للجائع خبزك.

وتدخل المسكين الطريد بيتك

أن ترى العريان فتكسوه

ولا تنهرب من مساعدة قريبك "

(أشعيا 58: 6 - 7)

السؤال الذي سيتوجب علينا مواجهته فيما بعد هو كيفية العثور على هذه الحرية والقلب العطوف الذي يفتح تجاه الناس الذين يختلفون عنا. كيف

يمكننا الانتقال من المفهوم المُقيد النخبوي للانتماء الذي يبخس قيمة الآخرين، إلى حرية القلب هذه التي تحب وتقدر الناس المختلفين عنا؟. تقول أونغ سان سوو كاي Aung San Sun Kyi، البوذية التي حازت جائزة نوبل للكفاح من أجل السلام، وحقوق الإنسانية والديمقراطية في بورما:

بالإمكان التغلب على كل حواجز العرق والدين عندما يعمل الناس في مسعى مشترك، يستند إلى الحب والعاطفة. معا نستطيع أن نبني عالما أفضل وأسعد، حيث يقل الطمع والإرادة الشريرة والأنانية إلى أقل حدودها. وهذه ليست مثالية غير واقعية، أنها اعتراف بالواقع الحقيقي لأعظم حاجاتنا.

أحيانا نحتاج إلى الشجاعة لنتصارع مع المصاعب التي تقف في طريق التطور. قد يتطلب الأمر اتخاذ قرارات غير شعبية والتغلب على الأحكام المسبقة. قد يكون ضروريا الوقوف إلى جانب المسحوقين والمنبوذين في مواجهة القمع والجور والظلم. إلا أن الحب الحقيقي المتكامل يطرد الخوف، وكل شيء يصبح ممكنا عند إقامة مشاريع للإحسان على أن يكون الإحسان رغبة حقيقية نابعة من القلب لمساعدة الآخرين.

لنقف إلى جانب المسحوقين، وأن لا ننبذهم أبدا بل نضمهم إلى حياتنا، نحتاج أن نتحرر من حاجاتنا المتسلطة للنجاح و الحصول على القوة والاستحسان. ونحتاج أيضا إلى التحرر من جروح الماضي التي تتحكم بحياتنا وتفصلنا عن بعض الناس. نحن جميعا بحاجة إلى النمو في الحرية. تلكم هي مواضيع الفصلين القادمين.

الفصل الرابع

الطريق إلى الحرية

بدأت في الفصل السابق أتكلم عن المثل الذي حكاه يسوع عن لعازر، الشحاذ الجائع. قضى لعازر حياته بعينين شرهتين إلى فتاة الطعام الساقط من مائدة الغني، المائدة التي نُبذ منها لعازر. وتستمر القصة ويموت لعازر ويموت الغني، ومن مكان العذاب الذي يقطنه يستطيع الغني رؤية لعازر يتنعم بنعيم السعادة في حضن إبراهيم، ويتوسل الغني أن يُسمح للعازر أن يجلب له بعض الماء ولكنه يُذكر بالهوة التي فصلت بينهما في الحياة والتي تفصلهما الآن في الموت.

أعيد حكاية لعازر هنا لأن هذا الفصل يتكلم عن طريق الحرية، وهو استمرار للطرق التي بدأت تطويرها في الفصل السابق. ولعازر صورة ملائمة لنا لنركز عليها.

النبذ عموماً يشير إلى طريقتنا في رفض الآخرين من الكائنات البشرية. إنه شيء نفعله أحياناً بطبقات وجماعات كاملة، الفقراء والمعوقون على سبيل المثال. إلا أن النبذ أمر شخصي جداً كذلك. نحن ننجذب إلى بعض الناس ولكننا نتجنب الآخرين. وغالباً ما يكون الذين يجذبوننا هم الذين يُدخلون السرور

إلى قلوبنا، يساعدوننا ويدعوننا للتحرك إلى أمام. وجود الانجذاب المتبادل يمكن أن يكون بداية صداقة حقيقية. أما الذين يتجنبوننا من جهة أخرى فيخيفوننا، وربما يكون سبب ذلك لأننا نخيفهم، ونوقظ مشاعر التنافس والمعاناة في بعضنا البعض وعليه نخلق حواجز تمنع الانفتاح. ربما نشعر بأننا إذا انفتحنا على الآخرين نخسر شيئاً، أو نتعرض للأذى أو يتم ابتلاعنا. نحن نخلق الحواجز لنحمي ضعفنا وقابليتنا للإنجرار.

ونحن نجتمع معاً لأننا نحس بالأمان معاً. نشجع ونساند بعضنا في الحفاظ على القيم التي نعتبرها مهمة والتي تعطينا الحياة. إلا أن ما يعجبنا يقتضي بالضرورة وجود ما لا يعجبنا ومخاوفنا. أننا محكومين بما يعجبنا و لا يعجبنا، بالغرائز والدوافع المتسلطة التي تكون نائمة عميقاً في داخلنا. نحن لسنا أحراراً تماماً. ونحن نفهم القوى الفاعلة في داخلنا بصورة غير كاملة، بل ولسنا حتى واعين بالعديد من هذه القوى. والحيوانات تمتلك غرائز مشابهة تستطيع أن تعرف على الفور إذا كانت الرائحة، الصوت، أو حركة الأجمة، على سبيل المثال، تدل على الخطر أم لا، ويبدو أننا نحن البشر نمتلك غرائز تساعدنا على التخلص من المواقف الصعبة أو تساعدنا في العثور على ما نحتاجه لنتمكن من الاستمرار في العيش. وتأول أدمغتنا أكثر الإشارات رهافة وتطلق ردود فعل بالغة السرعة. القدرة على قراءة أكثر الإشارات رهافة في العالم حولنا، قدرة متطورة جداً في الإنسان. ولكن لماذا؟.

نحن جميعاً نرغب - من وجهة نظر سيكولوجية خالصة-، في أن نشعر مشاعر طيبة عن أنفسنا، ولذلك نرغب في الحصول على إسناد إيجابي من المحيطين بنا. نحن بحاجة إلى الإعجاب والتقدير، نحن بحاجة إلى الرعاية

والحب. ونرغب في وجود من يشقائق إلينا عند غيابنا ونحن نفر غريزيا من الناس الذين يُشعروننا بالعجز وبأننا غير ملائمون أو الذين يُخسوننا قيمتنا أو يشعروننا بالمعاناة، وكل الأشياء التي تُؤلّد فينا مشاعر سيئة عن أنفسنا. هذه العملية عملية غير واعية إلى حد كبير، إلا أننا نستطيع بالطبع أن نعطي هذه الحاجات، كما هو بإمكاننا الوعي بعملية التنفس التي تجري في جسمنا. وعلى سبيل المثال نعني عناية كبيرة باختيار أصدقائنا، لأننا نستطيع أن نقرر، بهذا القدر من الوعي أو ذلك، كيف ستجعلنا هذه الصداقة نشعر عن أنفسنا وفيما إذا كانت هذه الصداقة ستساعدنا في التقدم في الحياة وتخلصنا من معاناة الإحساس بالوحدة.

حرية الاختيار

نحن محكومون بهذا القدر أو ذلك، بغرائزنا ودوافعنا التي تنتشأ من خبرات الطفولة الحلوة والمرة. ودرجة تحكمنا بهذه الدوافع ضعيفة، إلا أننا أحرار، بهذا القدر أو ذلك، قدر تعلق الأمر بطرق إشباعها. يختلف ما يجعلنا نشعر بالرضا عن أنفسنا اختلافا كبيرا من شخص إلى آخر. فالنجاح المادي يمتلك أهمية كبيرة بالنسبة للعديد منا، والأهداف التقليدية هي تسلق سلم الترقية، والحصول على المزيد من النقود، الحصول على المزيد من ألقاب الشرف، واكتساب المزيد من الامتيازات. وهناك من يريد أن يكون محاطا بعائلة مُحبة وسعيدة وأصدقاء مخلصين أوفياء. والنجاح بالنسبة

لأشخاص آخرين يكمن في كونهم مبدعون وقد يعني النجاح بالنسبة للبعض أن يكون بارعا في الخداع والتحايل!. مرة أخبر رجل في سجن أمريكي أحد أصدقائي: " أنا أفضل سارق للسيارات في كليفلاند وأنا فخور بذلك!. " وكان صديقي كاهنا، القسيس المسؤول عن السجن، وكان هو أيضا ناجحا في مجال يختلف اختلافا شديدا، مجال الكهنوت والوعظ.

النجاح والحصول على الإعجاب يعني أننا كفوؤون فيما نفعله إلا أن معظمنا لا يكتفي بأن يكون بارعا في عمل شيء ما. نحن نشعر بأن النجاح الحقيقي يكمن في الحصول على اعتراف الآخرين. هذه الرغبة في النجاح والحصول على الإعجاب يمكن أن تكون شيئا جيدا، لأنها تشجعنا على العمل الجاد والجيد، إلا أن هذه الرغبة في النجاح يمكنها أن تبعدنا عن العدل وخدمة الآخرين.

أن نكون أحرارا حقا، يعني أن نضع العدل، الحق وخدمة الآخرين فوق أي مكسب شخصي وفوق أي حاجة فينا للحصول على اعتراف الآخرين، والحصول على: القوة، وألقاب الشرف والنجاح. عندما نتشبث بالقوة الشخصية والنجاح، وعندما نكون في خوف دائم من فقدان المنزلة الاجتماعية، إنما نحن ننكر بصورة ما، إنسانيتنا، ونصبح عبيدا لحاجاتنا. عندئذ نفقد حريتنا.

في عام 1944 في مارزوبوتو وهي مدينة صغيرة بالقرب من بولونا في إيطاليا، قامت القوات النازية بارتكاب مذبحه جماعية قتل فيها ألفان من المدنيين. وذلك رداً على أعمال التخريب التي قامت بها المقاومة الإيطالية، إلا أن جنديا ألمانيا شابا، رفض الاشتراك في المذبحه وقد أعدم رميا بالرصاص.

ذاك الرجل كان حرا، حرا حقيقياً لقد وضع الحق والعدالة فوق طاعة رؤسائه والرغبة في العيش بأي ثمن كان. لقد رفض الاستسلام للشر.

التاريخ مليء بالأمثلة عن رجال ونساء أحرار رفضوا التقدم الشخصي، الثروة والقوة لأنهم أرادوا أن يعيشوا الحق والعدل وفقا لما تمليه عليهم ضمائرهم، متبعين خطى المبادئ الأخلاقية. ونحن نسمع الكثير عن مثل هؤلاء الرجال والنساء في رواندا وزائير وفلسطين والعديد من الأماكن الأخرى، نسمع عن أشخاص وقفوا إلى جانب الفقراء والمقعدين، أشخاص شجبوا الجور والظلم، وصاحوا مطالبين بحرية التعبير، أشخاص سُجنوا. عُذّبوا وقُتلوا.

وحتى في الحالات الأقل تطرفا، هناك العديد ممن رفض الرفاهية ليعيش في خدمة المحتاجين، أنهم يعطون من وقتهم وطاقتهم ومعرفتهم بسخاء ليتمكن الآخرون من أن يأكلوا ويلبسوا ويحصلوا على المأوى ويعيشوا بسلام. إلا أننا نعلم أن فاعل الخير يمكن أن يدفعه إلى ذلك مجموعة معقدة من الدوافع. فَتَحَّتْ مظاهر السلوك الكريم قد تكمن الحاجة إلى الحصول على الاستحسان، بل أحيانا تكون هناك حاجة لممارسة القوة والسلطة، وحتى سلطة روحية على الآخرين.

يمكن لهذه الحاجات أن تكون مصدرا لتوجيه حياة المرء تجاه الآخرين، وتجاه خير الإنسانية، إلا أن بإمكان هذه الحاجات نفسها أن تلوث وتفسد دوافعنا الأساسية، وتجعلها بهذا القدر أو ذاك، أنانية أو مصلحة شخصية. وهذه الحاجات الشخصية بالضبط هي التي يجب تنقيتها وتطهيرها لتصبح أفعال الكرم والخير وسيلة حقيقية تعمل في سبيل نمو الآخرين وإرضاء احتياجاتهم، بدلا من أن تكون وسيلة للتعظيم الشخصي. درجة التحرر من تحكم هذه

الحاجات بنا هي درجة الحرية التي وصلنا إليها ولكن كيف نبدأ في درب الحرية هذا؟.

نجد في الإنجيل قصة عن حاجات متناقضة تعتمل في صدر أخوين. أنها قصة الابن الضال. يطلب الأخ الأصغر من والده أن يعطيه حصته من الميراث ومن ثم يذهب ويبدده كله. معدهما وقد ألهبه الحنين إلى البيت يقرر العودة وطلب المغفرة من والده، لأنه فكر، ربما يقبلني والدي، ولو كخادم في البيت. أما الأب الكسير القلب على ابنه فقد أنتظر عودة ابنه بفارغ الصبر وعندما رآه قادما من بعيد هرع إلى لقائه. ثم دعا الأب خدمه وطلب منهم أن يكسوه أفضل كسوة ويقيموا وليمة فخمة احتفاءً به.

ثار سخط الأخ الأكبر وقال لأبيه متذمرا: وتقيم وليمة فخمة لهذا الأخ الذي لا يصلح لشيء، وقد ضيع ثروتك، أما لي فلم يسبق لك أن فعلت مثل ذلك. ولم يعتذر الأب عن تصرفه، بل قال " كان أبني ضائعا ووجدته ".

لقد شعر الابن الأصغر بدافع قسري يدفعه إلى ترك عائلته. واليوم يمكن أن نصفه بأنه أراد أن يجد ذاته. لم يكن اختياره لما فعل حكيما ولكنه خاطر بالذهاب والعيش وحيدا، والبحث عن شيء جديد. أما الأخ الأكبر فقد فعل شيئا تقليديا، لقد حاول أن يُسر والده بالبقاء في البيت.

أشك في أن أي من هذين الابنين لم يعرف والده حقا. لم يتخيل الابن الأصغر بأنه يمكن أن يُحب كما هو بالرغم من أن والده أعطاه حرية أن يكون هو نفسه، لم يحاول أن يفرض عليه شخصيته، والابن الأكبر لم يدرك كذلك بأنه ببقائه في البيت كان مطلوبا منه من قبل والده أن يكون محبا وحنونا.

إن المواقف التي يحملها هذان الأخوان يحملها الكثير منا. هناك أشخاص يريدون أن يكونوا أرواحا حرة ويخاطرون باقتحام طرق جديدة. وهناك من يريد أن يتطابق ويتلاءم أكثر مع الجماعة، وأن يسير ويسلك وفقا للمعايير. ترك الأخ الأصغر والده ليعثر على هويته، أما الأخ الكبير فقد سعى إلى التطابق مع المعايير، مثل معظمنا، كان الابنان مدفوعين بقوى لم تكن مفهومة لهما تماما. المهم هو أن كلا منا يدرك تدريجيا دوافعه، ويفهم بأننا نختار طريقنا بحرية ونؤكد ما نؤمن به، ليس بمعنى التمرد أو الحاجة إلى التطابق، بل من أجل تحقيق رؤية أكبر للحياة، للعمل من أجل العدالة ومساعدة الناس ليسيروا في الحق.

أما مخاوفنا المتنوعة، وأنواع القلق الذي نعانيه ورغباتنا فتقودنا إلى سلوك لا نفهمه جيدا، قد نكون منقادين بقوة قوية تدفعنا للحصول على الأمان والهدوء والنجاح التقليدي، ونفس القوى تدفعنا إلى الهرب من كل ما يخيفنا: النبذ، انعدام الحول والقوة والشعور بعدم التلاؤم والصراع. لنصبح أحرارا حقا يعني إيلاء اهتمام أكبر للحق والعدل أكثر من إيلاء الاهتمام لإشباع رغباتنا مهما كان الثمن. إنه أمر ظاهري التناقض. فهذه الحاجات جزء من وجودنا، نحتاجها لتتقدم في الحياة، إلا أننا بحاجة أيضا إلى أن نتعلم كيف نتحكم بها بدلا من أن نتحكم بنا.

قد نركز على هدف معين إلى درجة أننا نترك الأجزاء الأخرى من وجودنا دون أن تنمو. وهو الذي حدث لي. كان تكريس نفسي التام لمهنتي كضابط بحري بالنسبة لبعض الناس جديرا بالثناء. إلا أن هذا التكريس كان

يفقرني كثيرا لأنني أهملت أجزاء أخرى من وجودي . قلبي، عقلي . أهملتها وتركتها دون أن أطورها وأنميها .

أعتقد أن الدوافع القسرية تؤثر علينا جميعا . البعض تدفعهم دوافعهم إلى مساعدة الآخرين، وأن يقدموا لهم شيئا، أحيانا باسم الله وأحيانا باسم العدل، ويستمررون طوال حياتهم بأعمال هي استجابة عاطفية في حقيقتها، إلا أن مثل هؤلاء الأشخاص غالبا ما لا يكونون قادرين على توفير الوقت للعناية بأنفسهم، أنهم يحترقون . والشيء الأجل فيهم يمكن أن يتحول إلى أسوأ شيء . فيصبح كرمهم وسيلة لسقوطهم، لأنه ينبعث من الرغبة في الشعور بأنهم مرغوب فيهم ومحبوبون أكثر من كونه ينبعث من الرغبة في خير الآخرين وحريرتهم .

ليكون باستطاعتنا مساعدة الآخرين يتوجب علينا فهم حاجاتهم . فهل نستطيع ذلك إن لم نكن مدركين لحاجاتنا نحن؟ ألا نساعد الآخرين ليصبحوا أحرارا ويتحرروا من الاعتماد علينا .

إن لبعض الناس دوافع قسرية تدفعهم للحصول على القوة والتحكم بالآخرين . إنهم يحسون بانعدام رهيب للأمن ويمكن إرعايهم من حرية الآخرين . ما الذي يمكن أن يحدث إذا فقدوا تحكمهم؟ قد يكونون من العلماء ممن يمتلك المعرفة (أي أذكاء)، فيكون بمقدورهم أن يُعلموا ويُرشدوا الآخرين، إلا أن حاجتهم إلى القوة والتحكم، وأحيانا حاجاتهم إلى القوة الروحية ليعملوا " أعمال الرب " تحرمهم الحرية، أنها تقودهم بعيدا عن الحب الحقيقي وعطاء الذات، فتصبح المعرفة والقوة سببا لسقوطهم .

وهناك آخرون ممن يدفعهم شعورهم بفقدان الأمن إلى الانتماء ليسعوا إلى إستحصال استحسان الآخرين . فيصبح الانتماء مكانا للاختبار أنهم

يتطابقون مع المعايير ويخافون من الكشف عن شخصياتهم الحقيقية، ولا يسمحون لأعمق جزء من ذواتهم بالارتفاع إلى السطح، وهم يفتقدون القدرة على الإبداع، ويميلون إلى التقيد بالشرائع والقوانين، بإمكانهم استخدام الدين والأخلاق ليشعروا بتفوقهم. إنهم بحاجة إلى أن يراهم الآخرون خيَّرين، فاضلين، مطيعين وأتقياء. فلا تعود القيم الدينية والأخلاقية وسائل تساعدهم على الانفتاح أمام الآخرين - (بالرغم من مخاطرهم بحبهم) -، بل وسائل لتعزيز صورتهم الإيجابية عن ذواتهم، شعورهم بالتفوق، وبأنهم جزء من النخبة.

وراء الحاجات القسرية: معاناة

يمكن أن تتحول الحاجة القسرية للنجاح، فعل أشياء من أجل الآخرين أو أن نكون أفضل من الآخرين، إلى إدمان. الإدمان يَحْتِك على التقدم إلى أمام. وبمر السنين تستولي هذه الحاجات على كل طاقتك، ولا يعود أي شيء آخر يجذبك أو يثير اهتمامك. وبالنتيجة تتكون من ذلك شخصيتك وما أدعوه " ذاتك المزيفة ". عندما لا يتم إرضاء هذه الحاجات القسرية، يتكون خواء، إنه حرفيا شعور باللاراحة أو شعورا بالمعاناة!. تشعر بالضيق أو الاضطراب، كما لو أنك فقدت معرفتك بهويتك ومن تكون. ومثلما هو الحال مع المدمن الذي تم علاجه، الذي قطعت عنه المخدرات، يتطلب وقتا لتكوين اهتمامات ورغبات جديدة، لملاً هذا الخواء، ولخلق هوية جديدة.

حاجاتنا القسرية هي: الغلبة، والتحكم، وأن نكون محبوبين. وبالمثل لدينا مخاوف قسرية: الحصرات الداخلية، الخوف من بعض العلاقات، الخوف من الصراع. هذه الدوافع القسرية تدفعنا إلى الأمام ولكنها تحتجزنا وتقيدنا في نفس الوقت. إنَّها تجعلنا نغلق على أنفسنا، وتجعلنا عميانا لا نعرف لأنفسنا حدودا وتخفي عنا انكسارنا، وتخفي عنا جمال ومواهب الناس المختلفين عنا. تحت عبء تحكم دوافعنا القسرية، يمكن أن يصبح الآخرون وبسرعة تهديدا لنا: أنهم يقفون حاجزا في طريق الحب أو النجاح الذي يبدو كأننا في أمس الحاجة إليه.

كان يسوع عالما نفسيا حاذقا. فهو يقول:

" لماذا تنظر إلى القشة في عين أخيك ولا تبالي بالخشبة في عينك؟ أخرج الخشبة من عينك أولا حتى تبصر جيدا فتخرج القشة من عين أخيك. " (متى 7: 3)

من السهل الحكم على الآخرين ومعرفة أخطائهم وحدودهم. إلا أن من الصعب كثيرا أن نرى أخطاءنا وحدودنا! وعندما نراها نكتئب. فأما أن نعتقد بأننا رائعون، في مركز الكون، أو نجد أنفسنا شديدي البشاعة، في كدس القمامة البشرية. يكاد يكون مستحيلا، من الناحية الإنسانية، أن نعرف حدودنا، أخطاءنا ونقاط ضعفنا، وأن نتقبلها، ومن ثم ننمو لنصبح أكثر عطا وحنانا.

العطف هو النضج، والنضج هو القبول. النضج هو بالضبط أن نتقبل نفسك بمساوئك، وأن نتقبل الآخرين بمساوئهم وأخطائهم. فالنضج إذن هو أن نكتشف من نحن. يقول سقراط " اعرف نفسك " وتبقى تلك حاجة أساسية. عندما نبدأ بمعرفة أنفسنا، بمواهبها وأخطائها، وتوقنا إلى الحق والعمل، ودوافعنا

القسرية وحصاراتنا الداخلية، عندها نبدأ باحتلال مواقعنا في الجماعة، كل منا كما هو بالضبط، عاملين من أجل السلام، والوحدة، والعدل إلا أننا الآن نعمل هذا بأكثر الطرق كلفة.

نحن بحاجة إلى بعض الإرشادات عما نقبله ونقويه في نفوسنا وعما نغيره أو نعيد توجيهه. ربما نمتلك جميعاً هذه الإرشادات والتي يصعب التعبير عنها و لا نستطيع البرهنة عليها لأنها أساسية، فهي تنتمي إلى فئة المبادئ الأولى. فالحياة بالنسبة لي، على سبيل المثال، هي المبدأ الأساسي: أنا أو من بقدسية كل كائن إنساني وإن كل كائن بشري مدعو إلى أن يعيش الحياة بمثلها. نحن لا نستطيع تحقيق متطلباتنا إلا إذا عملنا معاً لخلق مجتمع يعمل الجميع فيه للتحويل من النرجسية والميول الأنانية، حيث ننغلق على أنفسنا، إلى حالة الانفتاح على الآخرين. ولا نستطيع تحقيق تلك المتطلبات إلا بالعمل معاً لتحقيق إنسانيتنا الكاملة. أنه القبول الحقيقي للذات، والرغبة للعيش في الحق والعدل والحب التي هي أسس الحرية.

أنماط سلوكنا لا هي بالجيدة ولا هي سيئة في حد ذاتها، إلا أن بالإمكان أن تتحول إلى عبء ومرض. لننمو إنسانياً علينا أن نتعرف عليها في أنفسنا ونختار الصحيح والملائم منها.

يمثل أرسطوطاليس الآمنا وانفعالاتنا المؤلمة بحصان له حياته الخاصة به، ويمثلنا براكبي الجياد الذين يجب عليهم أن يهتموا بحياة الحصان لتوجيهه إلى حيث نريده أن يذهب. ليس مطلوباً منا قمع الآمنا ودوافعنا القسرية، ولا أن نوجهها مباشرة، كما أنه ليس مطلوباً منا أن نسمح لها بالتحكم بنا، بل أن

نوجهها في الاتجاه الذي نريد أن نسلكه. بهذه الطريقة قد نتمكن من تحقيق إنسانيتنا ونسهم وفق مواهبنا في تحقيق إنسانية الآخرين.

نبدأ بالسير في طريق الحرية عندما لا نعود نسمح لدوافعنا القسرية وانفعالاتنا المؤلمة أن تتحكم بنا. نحن نتحرر عندما نبدأ بوضع العدل، العلاقات القلبية، وخدمة الآخرين والحق فوق وأعلى من كل حاجاتنا إلى الحب والنجاح وفوق وأعلى من كل مخاوفنا من الفشل والعلاقات.

إن الطريق إلى الحرية ليس سهلاً أبداً، فهو ينطوي على صراع حقيقي. وعندما نتغير ونحاول أن نعيش حقيقة أعظم، وعندما نحاول الخروج من مركزنا على الذات يواجهنا ألمنا الداخلي ومشاعر الكرب والضيق. عندما نحرر أنفسنا من دوافعنا القسرية قد نعاني من أعراض الحزن ومشاعر الفراغ الداخلي.

دلائل الحرية

ما هي هذه الحرية؟ اقرأ هذا الجزء من قصيدة لرديارد كبلنغ Rudyard Kipling المعنونة " إذا " .

إذا استطعت أن تحتفظ برأسك في حين يفقد كل الآخرين رؤوسهم ويلومونك.

إذا استطعت أن تحتفظ بثقتك في نفسك بينما يلومك كل الآخرين، وتفصح مجالا لشكوكهم كذلك.

إذا استطعت أن تنتظر دون أن تمل الانتظار،

أو قيلت أشياء كاذبة عنك، لا تتعامل بالأكاذيب،
أو كُرهت، لا تفسح مجالاً للكره

الحرية هي حرية الحقيقة. يقول يسوع: "الحق سيحرك". إنَّ الافتقار إلى الحرية يساوي الخوف، الخوف من الواقع، الخوف من الآخرين، ويعني التثبيت بالأوهام والأحكام المسبقة وأحياناً حتى بالأكاذيب، وأن يكون المرء محكوماً بالدوافع القسرية بدلاً من أن يتحكم بها. الافتقار إلى الحرية يعني فرض رؤية قاصرة على الواقع أو الرغبة في تغيير الواقع بالقوة بدلاً من تكوين رؤية جديدة عن الواقع. الافتقار إلى الحرية يعني الاعتقاد بأنك وحدك الذي تمتلك الحقيقة أما الآخرون فإمّا أن يكونوا أغبياء أو على خطأ. يعني أن يتحكم بك التعصب.

تكلّمت في الفصل السابق عن خوف الناس من المعوقين العقليين وعن الكثير من الأحكام المسبقة ضدهم والتي غالباً ما لا يكون لهذه المخاوف أساس. فقد يكون بعض هؤلاء الذين يخافون من المعوقين العقليين لم يلتق بأي معوق عقلي قبلاً على الإطلاق. إلا أن هذه المخاوف والأحكام المسبقة تتلاشى عادة عندما يتعرفون عليهم.

من جهة أخرى هناك أشخاص نجد المخاوف والأحكام أعلاه عميقة فيهم إلى حد أنهم يرفضون معه الالتقاء بأي شخص معوق. فهم يعرفون بصورة قاطعة بأن المعوقين "مجانين" "عديمو المنفعة ولا طائل من ورائهم، وغالباً ما تكون مثل هذه التعصبات مستندة على خوف عظيم من التغيير، يرفض الناس أن يحل الاضطراب بحياتهم الآمنة المطمئنة كما يرفضون أن تُعرض منظومة

مفاهيمهم للشك. يرفضون أن يفتحوا قلوبهم لمن هم مختلفون عنهم. الناس المتعصبون يفتقرون إلى الحرية.

أن نكون أحرارا يعني أن نعرف من نحن، بكل ما هو جميل فينا، وكل ما هو منكسر. الحرية تعني أن نحب قيمنا، ونحتضنها ونطورها، تعني أن نكون ثابتون في رؤيتنا و حقيقتنا ولكن منفتحين على الآخرين أيضاً، ومن ثم أن نتغير. الحقيقة تكمن في الاكتشاف، إنها ليست مجموعة يقينيات ثابتة إنما هي لغز ندخله، خطوة بعد خطوة. إنها عملية الانغمار أعمق وأعمق في واقعية لا يُسبر غورها.

في هذه الرحلة لتمازج خبرتنا وقيمنا، وما قد نتعلمه بإنصابتنا إلى الآخرين، قد نمر بفترة من المعاناة القاسية. نحن بحاجة إلى إيجاد أواصر تربط القديم بالجديد، أواصر تسمح بتكامل الجديد، الحقائق الموسعة للوعي، لتشمل ما نعرفه ونعيشه يقينياتنا الموجودة. طالما تتطور العلوم الإنسانية، ويتغير العالم، نحن مدعوون إلى التغيير وامتلاك فهم أعمق لمصدر الحياة و الكون. وعندما نشترك في هذه العملية يتوسع إحساسنا بالحقيقة. الحرية تعني أن ننهر من مصدر الحياة هذا، ننهر من جمال وتنوع الناس، و ننهر من الكون. الحرية تعني التأمل بعلو وسعة ما تحويه الحقيقة في ثناياها.

الحرية هي أن نقبل انتماءنا إلى مجموعة معينة ليست كاملة: كعرق، أو قبيلة، أو عائلة، أو جماعة، أو دين. وأن لكل منها حدوده ونقاط ضعفه. لكل جماعة من الناس نقاط منيرة ونقاط مظلمة. نحن جميعا نكون جزءا من شيء أعظم منا. نحن جميعا ننبعث من مصدر لا يُسبر غوره. ونحن جميعا راحلون إلى هذا المصدر، حاملين معنا النور والحقيقة والحب. كل منا مدعو

إلى المشاركة في هذا المصدر الذي هو قلب الكون. التوق اللامحدود لقلوبنا يدعونا للمشاركة في اللانهائي. لا أحد فينا يستطيع أن يقتنع بالمحدود والذي يمتلك نهاية. على كل منا أن يكون حراً في اتباع روح الله.

وهذه الحرية هي من أجل الحب والعاطفة، حرية أن نعطي حياتنا كلياً وبحرية أكبر للآخرين. أنها حرية الود والعطف والصبر. لا تسعى هذه الحرية وراء ألقاب الشرف الشخصية، فهي تؤمن بالكل، وتأمل بالكل، وتحمل الكل، وتحتمل الكل. الحرية لا تحكم أو تدين بل تتفهم وتغفر، الحرية هي التحرر من كل المخاوف الداخلية التي تجعلنا نخشى من الناس ومن الواقع. بالإضافة إلى أنها قبول متواضع لحقيقة أن لدينا مخاوف ونواهي وأنها بحاجة إلى طلب المغفرة من الناس الذين آذيناهم.

هناك حرية أشعر بوجودها ولكنني لا أمتلكها. ليس بإمكانني أن أصفها متى ما أردت ولكنني أريدها فعلاً. أحس أن أمامي طريقاً طويلاً أقطعه لأصل إلى هذه الحرية. الهدف أراه منظوراً، ولكنني لم أصله بعد. أحبه وأريده، إلا أنني أخاف أحياناً من الطريق الذي يتوجب عليّ قطعه.

يخيفني اختفاء سواتري الدفاعية، لأنني أشعر أن وراء هذه السواتر معاناة قاسية تنتظرني وهناك أذى سيصيبني. أراني ما زلت متشبهاً بما يظنه الناس فيّ وأنا مملوءٌ بطريقة حب الناس لي، ورجبتهم فيّ وإعجابهم بي. لو تلاشى كل هذا، من سأكون؟ ولكن هنا تكمن الحرية، الحرية في أن أكون مرفوضاً، إذا كانت تلك الطريق التي يجب أن أترقها لأعيش حياة أغنى. أليست تلك هي الحرية التي يعلن يسوع عنها في مجال التطويبات، عندما يقول:

"طوبى للمضطهدين من أجل الحق، لأن لهم ملكوت السماوات"،

أو عندما يقول:

"الويل لكم إذا مدحكم الناس؟".

أعتقد أنني أستطيع بطريقتي وفي سياق مختلف جدا أن أربط هذا

بكلمات نيلسون مانديلا Nelson Mandela:

"لست حرا حقيقةً إذا كنت أنتقص من حرية شخص آخر، مثلما أنني لست حرا إذا سُلِبْتُ مني حريتي.. الحرية لا تعني التخلص من القيود وحسب، بل العيش بطريقة تحترم وتعزز حرية الآخرين."

ويستمر قائلاً:

"لقد مشيت الطريق الطويل إلى الحرية وحاولت أن لا أتردد؛ وقد ارتكبت أخطاءً في الطريق الطويل. إلا أنني اكتشفت سراً، ألا وهو أنك بعد أن تتسلق قمة أحد التلال، لا تجد سوى المزيد من التلال تصعدها. اغتنمت هنا فرصة لأرتاح، وأسرق لحظة من المجد المحيط بي، وانظر خلفي إلى المسافة التي قطعتها. ولكن راحتي لا يمكن أن تدوم سوى للحظة، لأن مع الحرية تأتي المسؤولية، وأنا لا أجزؤ على التأخر، لأن طريقي الطويل لم ينتهي بعد."

إن معلمي الرئيسي على طريق الحرية هو يسوع، وأنا أشكر كنيستي التي قربتني إليه. أنا متأثر ومنجذب إلى تحرره التام وأتوق إلى تحقيق ذلك التحرر. إنها الحرية التي يتكلم عنها الرسول بولس:

"فأنتم يا أخواي دعاكم الله لتكونوا أحرارا؛ ولكن لا تجعلوا هذه الحرية حجة لإرضاء شهوات الجسد، بل اخدموا بعضكم بعضا بالمحبة... أما ثمر الروح فهو المحبة والفرح والسلام والصبر واللطف والصلاح والأمانة والوداعة والعفاف. وما من شريعة تنهي عن هذه الأشياء." (غلاطية 5: 13، 22 - 3).

الحرية هي أيضا موت الذات المزيفة

يتكلم دونالد نيكول Donald Nicholl، المؤرخ واللاهوتي العلماني الشهير في واحد من آخر كتبه عن التحرر الذي يرافق موت "الأنا" المزيفة ويقول:

يتكلم البوذيون اليابانيون عن أُنْيَيْنْ: أحدهما "الأنا" التي يمكن دراستها سيكولوجيا، والتي تسعى وتكافح من أجل إرضاء رغباتها، تعرض نفسها، ومكشوفة دائما. يسميها اليابانيون الشوغا وعليها أن تختفي وتتلاشى إذا توجب على "الأنا" الأخرى أن تولد بصورة صحيحة. هذه "الأنا" الأخيرة تسمى تيغا وتشير إلى كل الكائن البشري عندما يكون مأخوذا بملئه وغارقا في الإلهام والصلاة.

يقارن نيكولا هذه الأنا الثانية بنشيد الإنشاد عندما يقول: أنامُ ولكن قلبي مستفيقٌ (نشيد سليمان أو نشيد الإنشاد 5: 2) ويفسر نيكول قائلا "إن لم تُعقْ تعلقات القلب أعمق مطامحه، على الأنا تلك الذات الجزئية التي تراقب نفسها دائما وتؤلف لها دورا تلعبه، أن تعيش."

يتوصل دونالد نيكلسون على حقيقة كبيرة. ألا يتكلم كل المعلمين الروحيين عن موت الذات كسبيل وحيد لظهور الذات الحقيقية، والذات الحقيقية التي يشيرون إليها ليست الآلام العاطفية المنظورة، بل وكل الدوافع القسرية الخفية التي تدفعنا إلى البحث عن المجد الذاتي. عندما يتكلم يسوع عن التحرير الذي يحققه الحب، يقول:

" الحق الحق أقول لكم إن كانت حبة الحنطة لا تقع في الأرض وتموت، تبقى وحدها. وإذا ماتت أخرجت حبا كثيرا. من أحب نفسه خسرها، ومن أنكر نفسه في هذا العالم حفظها للحياة الأبدية. "

(يوحنا 12: 24 - 25)

" الحياة " هي حياة الأنا المزيفة، و " الحياة الأبدية " ليست الحياة بعد الموت، بل الحياة التي نحن مدعوون إلى عيشها في حرية الحب. إن موت الأنا المزيفة، أكثر إيلاما عند الناس الذين خلقوا لأنفسهم ذواتا قوية، مهيمنة وتفرض نفسها على الآخرين. إلا أن موت الأنا المزيفة هذه أقل إيلاما عند الضعفاء الذين لم يسعوا إلى الحصول على القوة، مع أن ذلك قد يكون مؤلما لمن يفتقر إلى الثقة بنفسه.

الحرية التي تنتج عن موت الذات المزيفة هي أن نقبل أنفسنا بما نحن عليه دون زيادة أو نقص. هذه الحرية تعني أن لا نبكي على الماضي ونتوق للعودة إلى الوراء. أنها لا تتغلق على نفسها في مجاميع طائفية يملؤها الخوف من كل ما هو خارج عنها. أنها لا تعني أن نصبح مَهْوَلين الأمور " يا للمأساة، لقد حلت نهاية العالم !". إذ يشملنا الجور والظلم الذي يعم العالم. ولا تعني الإيمان الساذج بأن الإنسانية قد تحررت أخيرا، وأن كل شيء سيكون على ما يرام. أن يكون المرء حرا يعني أن يرى حقائق جديدة تنبثق من الفوضى وأن يرى روح الله ترفرف فوق الفوضى، تعني أن نرى واقعيات جديدة وإيجابية تظهر من وراء يقينيات وأحكام الأمس المسبقة.

كل عصر وكل جيل يواجه واقعيات ومآسي ومصاعب جديدة، ولكن يواجه أيضا حقائق جديدة. العالم ومجتمعاتنا الإنسانية فيه في حالة تغيير، كل يوم يكشف عن أشياء جديدة. نحن نعيش عصرا بالغ الإثارة. هناك أنواع عديدة جدا من التكنولوجيات التي تستطيع أن تدمر الكوكب الأرضي، وهناك مخاوف عميقة تجعل الإنسان والجماعات تتغلق على نفسها. بالرغم من كل المخاوف، الشر، الأكاذيب والكراهية فينا ومن حولنا، أو ربما بسببها، علينا أن نكافح من أجل أن ندرك ما الذي يطالبنا روح الله أن نكونه وما الذي يطلب منا أن نفعله.

إن روح الله يكشف باستمرار عن أشياء جديدة لعصرنا، بل يكشف حتى عن حالة روحية جديدة. في الكنائس المسيحية تتحرك رغبة اكتشاف الرسالة الجوهرية للحب والمغفرة بدلا من البقاء في قيود وأسر الشرعيات، والطقوسيات، والجدالات عن حق ومن هو على خطأ. يمتلك أشخاص عديدون من أديان مختلفة رغبات مشتركة في اللقاء معا، والمشاركة والتحاور معا، والصلاة معا. هذه الرغبة في الوحدة ليست واسعة الانتشار بالضرورة، إلا أنها بذرة ستتمو وتحمل الكثير من الأثمار.

لكل منا مسؤولية العمل من أجل تحرير جميع الناس. هناك أشياء جديدة تنتظرنا جميعا. لنكن منفتحين للقائنا. نحن مدعوون إلى معرفة أين تكمن الحقيقة اليوم.

الطريق إلى الحرية

هل هذه الرؤية الطوباوية هي مجرد رؤية مثالية مستحيلة التحقق؟ هل نستطيع أن نسير ونصل إلى الحرية، أم أن حاجات الأنا حاجات متضخمة وحسب؟ هل نحن مدفوعون بقوة لندفع أنفسنا في المركز ونعمل كل شيء من أجل غرورنا وشهرتنا الخاصة بنا وحدنا؟ هل نحن مرعوبون من السماح لذاتنا الحقيقية في البروز إلى السطح؟ هل نستطيع كسر طوق (أو شرنقة) أنانيتنا الفردية والجمعية وحاجاتنا إلى الأمن لنعمل من أجل السلام وصالح البشرية عموماً؟ هل يمكن أن يكون لنا حلما معقولا مثل حلم مارتين لوثر كينغ - داعي حقوق الانسان في الولايات المتحدة-، حلم عن عالم يستطيع الناس فيه، مهما كان عرقهم، أو دينهم، أو ثقافتهم، أو قابلياتهم، أو عوقهم، ومهما كان تعليمهم أو وضعهم الاقتصادي، ومهما كان عمرهم أو جنسهم (ذكراً أو أنثى)، العثور على مكان يكشفون فيه عن مواهبهم؟ هل نستطيع أن نأمل في مجتمع رمزه المجازي ليس هرما بل جسما حيا، وحيث يمثل كل واحد فينا جزءا حيويًا منسجما وفاعلا مع بقية الأجزاء جميعاً؟.

أنا مؤمن أن ذلك باستطاعتنا، لأنني مؤمن بأن الطموح من أجل السلام، المشاركة، والحب الإنساني الشامل أعظم وأعمق في البشرية من الحاجة إلى الفوز في سباق الحياة التنافسي. إلا أنه يتوجب على كل منا، إذا أردنا لهذا الطموح ان يصبح رغبة حقيقية تلهم نشاطاتنا، و تتغلب على مخاوفنا

وحاجاتنا إلى الفوز، أن نقفز دائرين إلى الثقة: الثقة بقدسية قلب كل إنسان، الثقة في جمال الكون، الثقة في أن العمل من أجل السلام والوحدة وتطهير ذاتنا المزيفة، سيفتح أمامنا كنزا.

إلا أن الإلهام والدعوة إلى الثقة لا يأتي إلا في لحظة النعمة، في شعاع النور الرقيق، في لحظة إدراكنا لحقيقتنا ومن ثم علينا أن نتقدم إلى الأمام لنقوي هذا الإلهام باتخاذ خيارات والتزامات واضحة.

إلا أننا يجب أن لا نكون ساذجين. فهناك قوى هائلة تعمل على كسر الثقة: الشر، الكراهية، والكذب وهناك أشخاص يسعون إلى القمع والتحطيم والقتل. نحن جميعا بحاجة إلى العون لنتمكن من التمييز بوضوح أين توجد الحياة والحقيقة، وأين يوجد الوهم والموت.

وكما سبق وأن قلت إنّ هذه الحرية ليست من أجل النخبة. لمعظم الناس، مثلي، هي شيء علينا أن نعمل ونكافح لتحقيقه. إنّه طريق طويل ولكنه جميل. بيد أن لبعض الناس حواجز أقل، وآليات دفاعية أقل، ويبدو أن دوافعهم القسرية أضعف.

فقد سبق لي وأن قابلت أمهات رائعات كاملات ومكتملات. وقد التقيت برجال ونساء حكماء ورقيقين ومنفتحين وأحرار. التقيت معوقين يمتلكون حرية تثير الدهشة، لا يبدو عليهم أنهم مسجونون في أحكامهم المسبقة. التقيت بأناس مصابين بأمراض عقلية أحرار في قلوبهم، يعرفون بأنهم مرضى، إلا أنهم فهموا حدودهم وقبلوها. التقيت العديد من الناس في الأحياء الشعبية الفقيرة القذرة وفي أوضاع محطمة في جميع أنحاء العالم يبدو أن أحراراً بصورة رائعة لا تشوشهم الحاجة إلى القوة والمجد البشري.

يدهشني هؤلاء الناس ويثيرون فيّ الرهبة، وأحبهم وأعجب بهم في ذات الوقت. فيهم حضور الله، رقة، عطف، اكتمال، وتواضع. قلوبهم مفتوحة للآخرين، وربما كان هذا هو السبب في قابليتهم على الإنجراح السهل، والسبب في هشاشتهم، وسهولة تعرضهم للأذى. وإذا لا يدافعون عن أنفسهم، أليس ذلك بسبب كونهم يعرفون أن عين الله ترعاهم؟ هذه الحرية متاحة للجميع. إلا أن البعض أقرب إليها وآخرين من بيننا عليهم أن يعملوا بجهد أكبر للوصول إليها، لأن لدينا دفاعات أقوى يتوجب التغلب عليها.

الخطوات التي يتوجب سيرها وصولاً إلى الحرية والتي أجزها هنا هي لنا جميعاً نحن الذين يتوجب علينا الكفاح على طريق الحرية.

الخطوة الأولى إلى الحرية هي أن نعلم أن الخوف يمكن أن يكون مستشاراً جيداً. بالرغم من الغرابة التي ينطوي عليها هذا الكلام، إلا أن اختبار الخوف يمكن أن يؤدي بنا إلى السعي إلى الحرية. الخوف يتولد من الأزمة ويدعونا جميعاً إلى الحوار، التأمل، والتساؤل، والبحث عن حلول. أما الأوضاع المتطرفة القاسية كما في أيرلندا الشمالية، والحرب الأهلية في غواتيمالا، وحرب الإبادة في البوسنة ورواندا، فيمكن أن تلزم الناس من كل الأطراف أن يسألوا هذا السؤال: هل حقاً نريد السلام! وهناك أسباب أكثر تسبب المعاناة، مثل صناعة السلاح العالمية والشركات متعددة الجنسية التي تهيمن على اقتصاد العالم، كلها تجعلنا نسأل: هل نريد عالماً مبنياً على مبدأ التنافس، حيث يغلب القوي بالقتل والقمع؟ هل نريد أن تحكنا الاقتصاديات فحسب ولاشيء غير الاقتصاديات؟ هل يستطيع الذئب والحمل أن يرعيان معاً، كما تقول نبوءة أشعيا؟ هل يمكن العمل من أجل السلام والحب؟

الخطوة الثانية إلى الحرية تتضمن أن ندرك حدودنا وعوائقنا

الداخلية لقد استغرقتني وقتاً إلى أن أدركت حدودي. عندما كنت في البحرية في بواكر الخمسينيات، في ذروة الحرب الباردة، عرفت أننا كنا إلى " الجانب الحق " و" بيان الآخرين كانوا سيئين. كان علينا أن نتهياً للحرب من أجل السلام. بعد ذلك وبعد أن درست الفلسفة واللاهوت، تعلمت ما الذي كان صحيحاً وما الذي كان خطأ. تعرفت على الأخطاء في مختلف الأنظمة الفلسفية والسياسية وتعرضت على الأخطاء في اللاهوت والتقاليد الدينية.

ربما نحتاج جميعاً في مرحلة من حياتنا إلى الإيمان بـمثال، وحتى بأيدولوجية، حيث الخط بين الصالح والطالح، بين الحقيقة والزيغ ظاهر شديد الوضوح. في هذه اللحظات ننظر إلى أنفسنا كجزء من نخبة وكأننا نمتلك كل الحقيقة، ونخلص العالم من كل الفوضى والشر. ربما توجب علينا جميعاً أن نعتنق أفكار فترة المراهقة القوية قبل أن يكون بإمكاننا التحول إلى بالغين ناضجين نمتلك الحكمة لتعديل يقينياتنا ونستمع باحترام للأشخاص الذين يقدمون لنا وجهات نظر مختلفة.

لقد استغرقتني وقتاً لأرى وأتقبل الأخطاء في تاريخ وحياتنا كنيسة، وأن اكتشف الجمال والحقيقة والخير في الكنائس والأديان الأخرى كما استغرقتني وقتاً لا تعرف على كل ما كان مكسوراً في داخلي: أحكامي السابقة، ومخاوفي، ودوافعي المختلطة، ونقاط الضعف في حاجتي إلى النجاح، وخوفي من الفشل. يُعلم المعلمون الروحيون في مختلف الأديان بوجود خطوات للنمو وصولاً إلى الحرية. يقول التعليم البوذي بوجود أربع " مقامات سماوية "، أو حالات إلهية للعقل:

المقام الأول "ميتا"، هو اللطف المحب، حب يسعى إلى العطاء والخدمة بدلا من الأخذ والمطالبة.

المقام الثاني هو مقام الشفقة "كيرونا"، حيث يرتعش القلب استجابة لمعاناة الآخرين، ويرغب في إزالة هذا الألم من حياتهم.

المقام الثالث هو مقام الفرح المتعاطف "موديتا"، وهي مهمة تأخذ القلب ونحن نرى، الضعيف، الفقير والمقموع يتحرر وينمو في الحرية.

المقام الرابع هو مقام سلام القلب "بيكا" وهو مقام يتمتع من الكائنات البشرية العادية فلا تستطيع الحصول إليه، حيث لا تستطيع تلك القدرة العادية في التحكم بعقولنا وعواطفنا.

ويتكلم الكتاب الروحيون المسيحيون عن الخطوات الموصلة إلى الحرية، كذلك في البداية هناك الصراع ضد العواطف القوية ولكن السطحية الرديئة، والطمع، والمتعة، والأنانية، والتركيز الصارخ على الذات، وذلك لنتمكن من أن نعيش حياة يقودها الحق والخدمة والصلاة.

يعاوننا في هذا الصراع وجود مكان للانتماء ندخل إليه، حيث نستطيع الاستمرار في التشكل العقلي والروحي مع أخوة وأخوات حيث يكون أسهل بكثير التغلب على العواطف والمشاعر السطحية. إلا أن عواطف أدق تبدأ بالظهور: الشعور بالتفوق الفكري والروحي، الامتناع من اللامنتمين، الحاجة إلى التحكم بالآخرين. إلا أن الصراع يستمر عندما نرى وجوب موت الذات المزيفة، الأنا الروحية، لنتمكن من التوحد مع الله في الفقر، والحرية، والصغر، والتواضع، ومحبة الآخرين كما يحبهم الله.

أنا أيضا توجب علي أن أخرج من العقائد واليقينيات الثابتة باتجاه النضج والحكمة. توجب أن أنظر إلى انكساري، مخفيا وراء حاجتي اللاواعية

في " النجاح الروحي ". والآن أيضا، وأنا في سن السبعين، ما تزال رغبتني في الحرية تنمو. فالأوان لا يفوت أبدا والفرصة متاحة دائما.

من الممكن أن ننمو في حرية أكبر لو لم نكن واعين بافتقارنا إلى الحرية؟ هل نتطلع إلى أن نتمكن من الرؤية ان لم نكن عميانا؟ أين نجد الأمل، الطاقة، والرغبة في العمل لتحقيق تلك الحرية والرؤية الجديدة؟ كل الكتاب الروحيين يتكلمون عن مشاعر الألم والانكسار التي نشعر بها ونختبرها عندما ننتقل من أمان اليقينيّات خلال مواقع الشك وصول إلى الحكمة. الحكمة تستوجب قدرا معيناً من الفقر في القلب والروح، هذا الفقر والتواضع الداخلي هو الذي يفتح القلب لفرح جديد، وحرية جديدة، ولقاء جديد مع الله.

الخطوة الثالثة إلى الحرية هي البحث عن الحكمة التي تولدها

الأحداث غير المتوقعة: موت صديق، المرض، حادث يؤدي إلى عوق شديد، أو سوء حظ يحطم نمط حياتنا ويلزمننا بإعادة تقييم حياتنا، ويلزمننا بإيجاد قيم جديدة.

مثل هذه الحوادث تفاجئنا وهذه المفاجئة تجعلنا نفتح أمام الجديد والشامل. وتبدو هذه الأحداث مأساوية لأنها تخرجنا من العالم الآمن، العالم الذي نتوقع فيه ما يحدث إلى عالم الفوضى، عالم غير المتوقع، زمن ثم عالم المعاناة القاسية. إلا أننا سنكتشف فيما بعد أن هذه الأحداث كانت بركة ونعمة. مرات كثيرة أخبرني أهل أشخاص معوقين عن الصدمة التي تعرضوا لها عند ولادة طفلهم المعوق ومن ثم اكتشفوا أن طفلهم كان يقودهم من عالم القوة والتنافس إلى عالم الرقة والود. بإمكان الأزمات والتغيرات غير المتوقعة أن تقودنا إلى الرفض، اليأس، السخط، والتمرد، إنّ هذه المشاعر تستطيع أن

تساعدنا تدريجيا في قبول الواقع كما هو، وتجعلنا نكتشف طاقات جديدة في الأوضاع الجديدة، نكتشف حرية جديدة، ومعنى جديدا للحياة والعالم. غالبا ما يحتاج الناس الى العون من شخص ما ليصلوا إلى هذا الاكتشاف، من شخص يسير معهم، مرافق. أحد العوامل الأكثر أهمية في التحرر الداخلي هو أن يكون هناك من يرافقنا. يجب أن نسأل أنفسنا: من هو الذي يسير معي؟.

وعليه فإن خطوتي الرابعة إلى الحرية تحتوي على الرقعة. المرافق هو شخص يستطيع أن يقف إلى جانبنا في طريقنا إلى التحرر عن شخص يحبنا ويفهم حياتنا. المرافق قد يكون أحد الوالدين، معلم، أو صديق، أي شخص بإمكانه إعطاء أسم لألمنا ومشاعرنا الداخلية. قد يكون المرافقون محترفين أو معالجين، الذين يمتلكون خبرة في فك العقد التي تقف حاجزا أمام تطورنا. قد يكونون قساوسة يحملون رتبا كهنوتية أو أشخاصا آخرين نمووا في طرق الرب، من الذين يسعون إلى مساعدتنا لفهم إنسانية وحاجات أهدنا الأخر، ويساعدوننا في إدراك دعوة الله إلى المشاركة، والتحرر الداخلي، وحب أعظم للنفس والذات. الرقعة ضرورية في كل مرحلة من مراحل حياتنا، ولكنها ضرورية خصوصا في لحظات الأزمة عندما نشعر بالضياع، والانغمار في الغم أو عندما تتناوبا مشاعر العربة والنقص، فالمرافق دوره أن يمنح العون، أن يمنح الثقة والتأكيد وأن يفتح أبوابا جديدة. ليس دور المرافق أن يحكم علينا أو أن يخبرنا بما نعمل، بل أن يكشف الأجل والأكثر قيمة في داخلنا، بالإضافة إلى دوره في الإشارة إلى معنى ألمنا الداخلي. بهذه الطريقة يساعدنا المرافق في

التقدم نحو حرية أكبر بمساعدتنا على العزاء والسلوى من ماضيها ومساعدتنا في قبول أنفسنا كما نحن، بمواهبنا وحدودنا.

كنت محظوظا لالتقائي بالأب توماس فيليب عندما غادرت البحرية. فقد كان هو مرافقي لسنوات عديدة. كان موجودا دائما عندما كنت بحاجة إليه، وخصوصا عندما بدأت " السفينة ". لم يحكم عليّ أبدا بل كان يتقبلني دائما ويستخرج الأفضل الذي فيّ. ولأنني حصلت على رقة طيبة، تمكنت من أن أفتح قلبي. لم أحتفظ بالأشياء مخفية في الداخل، حيث يمكن أن تتعفن وتبلى. استطعت أن أشخص و أسمى نقاط ضعفي ومخاوفي.

الجزر اللاتيني لكلمة " الرقة " مثل كلمة " المرافق " الذي يعني " مع الخبز "، وينطوي على المشاركة معاً، الأكل معاً، وتغذية الاثنين أحدهما الآخر، والمشي معاً. الذي يرافق يشبه القابلة، يساعدنا على الولادة في الحياة، وعيش حياة أكثر غنى وامتلاء. إلا أن المرافق يستلم حياة هو أيضا، وبانفتاح الناس على بعضهم البعض تتطور شركة قلبية بينهم. إنهم لا يتمسكون متشبثين بأحدهم الآخر بل يعطون الحياة أحدهم للآخر ويدعونهم إلى حرية أكبر. وعليه كان من السهل عليّ أنا أيضا أن أرافق أشخاصا آخرين، أن أثق فيهم، أن أزيل بعضا من الشعور بالذنب الذي كان يثقل أكتافهم، وأن أساعدهم في أن يكتشفوا قيمهم.

الرقة تقف في قلب الحياة الجماعية المشتركة في السفينة، إلا أنها تقف كذلك في القلب من عملية كل نمو إنساني. نحتاج نحن البشر إلى السير معاً، مشجعين بعضنا البعض على الاستمرار في رحلة النمو والكفاح من أجل الحرية، وكسر قشرة الأنانية التي تغلفنا وتمنعنا من الوصول إلى ملء إنسانيتنا.

خطوتى الخامسة إلى الحرية تتعلق بالأشخاص الذين قاموا بأدوار

نموذجية أشخاص هم شهود على الحقيقة ولهم رؤية واضحة لما يقومون به. يستطيع كل واحد منا ونحن في طريقنا أن نرى بأن آخرين قبله قد سلخوا نفس الدرب إلى الحرية. في القرن الأخير وُجد عدد من الأشخاص الأحرار العظام: مهاتما غاندي، الدلاي لاما، الأم تيريزا. وكل منا يستطيع أن يكون قائمة بأسماء الذين، ربما يكونون بطريقة خفية هادئة مُعطين من حياتهم لتكون للآخرين حياة أفضل ويجدون الأمل. هناك رجال ونساء يكافحون لجلب الطعام للمحتاجين، ولإحلال السلام في مناطق الصراع والحرب. هناك العديد من الرجال والنساء ممن كافح من أجل أن يكون العالم مكاناً أفضل للسكن. لقد عاشوا حياتهم كما وعظوا، لقد أعطوا من حياتهم من أجل الحقيقة والحب.

النموذج هو شخص يعلن طرقاً جديدة في الحياة بالرغم من كل الفوضى، شخص يبقى على محبته وتواضعه بالرغم من كل العنف السائد، شخص لا يحكم أو يدين. أثناء حياتهم يبين لنا هؤلاء الأشخاص لوحة أكبر: بأن هناك طريقاً للسلام والوحدة، بالرغم من أن هذا الطريق قد يحتوي صراعاً وألماً.

الخطوة السادسة هي أن ندرك بأن الطريق إلى الحرية هو طريق

كفاح كذلك، تحرير المرء لنفسه من الدوافع القسرية وتكريس نفسه للنمو الداخلي والحق والعدل وخدمة الآخرين، عملية شاقة. الكفاح يعني أشياء كثيرة، يعني بذل جهد لعدم التكلم عن الآخرين من موقع مخاوفنا وجروحنا الداخلية، وبذلك نحط من قدرهم ونحكم عليهم. إنه يعني عدم تجنب المختلفين عنا، بل بالأحرى التقرب إليهم بقلوب مُنصتة. بالنسبة للبعض يعني الكفاح زيارة أماكن

تجمع الناس المختلفين عنهم: في السجون، وردهات الطب النفسي، والمؤسسات المخصصة للمعوقين، والأحياء الشعبية القذرة، والبلاد الغريبة. يعني توفير الوقت للاستماع للأفراد، الاستماع إلى معاناتهم، وآمالهم، وسخطهم، واكتئابهم. هذا الكفاح، كفاح مستمر، شيء نفعله دائما بصورة قاصرة.

وكلما طعنا في السن كلما أصبح هذا الكفاح أبسط. غالبا ما تأتي الحكمة مع تقدم العمر، بقدر ما نتقبل أن نعيش ملء عمرنا في شيخوختنا. ففي شيخوختنا لا نعود بحاجة إلى أن نكون الأمرين الناهيين ولا يتوجب علينا السرعة والكفاءة في مختلف نشاطاتنا الحياتية، لا نعود نحتاج إلى موقع مهم في الجماعة. أخيرا نتاح لنا الفرصة في أن نكون من نحن، وأن نتمتع بالطبيعة ونفعل أشياء لم نمتلك سابقا فرصة أن نفعلها. لا يعود مفروضا علينا أن نبرهن على شخصيتنا وذواتنا. ونمتلك المزيد من الوقت لأن نكون علاقات قلبية مع الآخرين، وأن نرتاح في شركه مع الله. أليس هذا هو المعنى الحقيقي للشيخوخة، التي تميل مجتمعاتنا الحديثة إلى الحط من قيمتها. إن لم نسع في شيخوختنا إلى أن نعيش هذه الحكمة، ألا نعرض أنفسنا لخطر الوقوع ضحايا الكآبة، لأننا عندها نكون قد فقدنا طاقتنا، ودورنا، وأحيانا صحتنا، ولكننا لا نكون قد اكتشفنا ما الذي ربحناه؟.

الخطوة السابعة في الطريق إلى الحرية هي إدراك أن تحرر القلب يتم

عندما نكون في شركة مع مصدر الكون، في شركه مع الله. فالله يؤثر فينا ويلامس قلب الوجود في داخلنا، ويكون هذا التأثير أعمق من أي دافع قسري يدفعنا إلى امتلاك القوة والإعجاب وأقوى من مخاوفنا من النبذ ومن مشاعر الذنب. يكشف الله فرادة وقيمة وجودنا كما نحن بالضبط.

لقد حاول المتصوفون في كل التاريخ البشري أن يحرروا أنفسهم من أناهم وأنانيتهم المترسخة، ليعيشوا في اتحاد أعمق مع الله وليكونوا أحرارا في أن يحبوا مثل الله، بحنو ورأفة. وُجِد أيضا رجالا ونساءً، الذين بالرغم من أنهم ربما لم يسعوا للتوحد خصوصا مع الله، إلا أنهم كانوا يسعون بحثا عن الحقيقة والحنو والشفقة، وعملوا من أجل السلام ووحدانية الإنسانية.

هذا الاتحاد مع الله، وهذه الثقة بأن الله يحبنا وأن " عينه ترعانا " تمنحنا قوة داخلية وتعزز في أن " نكون " وأن " نكون حقيقيين ". إنها تمنحنا الفرصة ان نرى كل شخص، كل حادثة، المسيرة الكبيرة للتاريخ، والكون كله، كما يراها الله. هذا في حد ذاته يقلل حاجتنا إلى البرهنة على ذواتنا أو الاختفاء وراء حواجز القوة أو المعرفة. كما يقلل من مخاوفنا في النبذ. وبمنعنا من جعل أي شيء حقيقة مطلقة. لا أي شخص، ولا أية مجموعة ولا حتى الإنسانية برمتها، إنما الله. هو بكليتها.

هذا الاتحاد مع الله لا يولد توترا بين أجسادنا وأرواحنا. الله موجود في مصدر وجودنا كله، الروح والمادة. هذا الاتحاد يوصلنا إلى التكامل الداخلي والخطر الذي يُحْدِق بنا هو أن نقيم حاجزا أمام الحياة التي تجري إلى داخلنا من قلب ومصدر الكون عندما نسعى إلى تأكيد ذاتنا في بحث مستمر عن القوة والحصول على اعتراف الآخرين. بموت ذاتنا المزيفة نحرر حياة الله فينا، وبكلمات مارتن بوبر ندع الله يسري في قلوبنا ووجودنا ومن ثم يدخل عالمنا.

كثيرا ما شوهدت رسالة يسوع. مع ذلك فيسوع جاء ليقودنا إلى مجتمع هو جسم (حي)، حيث يجد كل جزء، ضعيف أو قوي، متمكن أو معوق، مكانه وحريته. هذه النظرة إلى الإنسانية التي هي طيبة وخير ورأفة وحنو تجاه

كل شخص، تتبعث من إله المحبة، الإله الذي يريد أن يغير قلوبنا الحجرية إلى قلوب من لحم وأحاسيس.

الإنسانية بحاجة إلى العودة والرجوع إلى هذا الإله المتواضع المحب الذي كله قلبٌ نابض بالحب. إنها بحاجة إلى إعادة اكتشاف رسالة الرقة والعطف ونبذ العنف والمغفرة، إنها بحاجة إلى اكتشاف ما هو جميل في كوننا، ما هو جميل في المادة، في أجسامنا، وفي كل الحياة. طريق إعادة الاكتشاف هذا هو طريق كفاح، ولكنه طريق جدير بذلك.

رسالة الحب هذه يرافقها سر، النشوة الرقيقة للحب، وسلام جديد يدخل القلب، وتحرر داخلي. وهي ليست رسالة لذوي الارادات القوية والمتشددين الحازمين في ناسهم فحسب، بل هي رسالة موجهة إلى كل الذين يفتحون قلوبهم لإله المحبة، هذا التحرر الداخلي هي عملية من أجل الذين يخفون ذواتهم الحقيقية وراء حواجز عالية، من أجل الذين بُنيت شخصيتهم وخصائصهم على الخوف ولكنهم يتقون بالقوة المُحررة لإله المحبة. إنها من أجل كل المُغلق عليهم في سجون آلام الماضي والذين يكتشفون قليلا قليلا طريق المغفرة. وذلك هو موضوع فصليّ الأخير: المغفرة. وذلكم هو السر النهائي للتحرر، أن تغفر وأن يُغفر لك، وأن تصبح بذلك حرا، مثل الأطفال الصغار.

الفصل الخامس

المغفرة

الكلمة الإغريقية المقابلة لكلمة المغفرة هي التحرير وفك القيود، تعني إلغاء الدين، الذنب، والعقوبة. وتستخدم عند فتح باب السجن بحيث يمكن للسجين أن يخرج حراً.

نحن البشر مدعوون لأن نصبح أحراراً، لأن نحرر الآخرين، أن نرعى الحياة، أن ننظر إلى ما هو جديد وجميل في كل واحد منا، وأن نجعل من عالمنا حديقة جميلة حيث يتمكن كل شخص وكل مجتمع أن يخلق مشتملاً للزهور وبساتنا للثمار، وبذلك يحضر بذور السلام للغد.

في الفصل الفائت تكلمت عن التحرر من الدوافع القسرية التي تدفعنا لتحقيق النجاح، ومن الدوافع التي تدفعنا لاستحصال الإعجاب، والخوف من النبذ. عندما تتحكم هذه الدوافع القسرية والرغبات الملحة بسلوكنا وتمنعنا من السعي لتحقيق العدل والحرية للآخرين، عندئذ لا نكون أحراراً. أريد أن أتكلم في هذا الفصل عن استمداد الحرية من الانجرافات الداخلية التي تحكم سلوكنا وتجعلنا نتصرف بصورة غير بشرية تجاه الآخرين.

إن بعض هذه الجروح التي ابتلينا بها شديدة الفعالية، مثل تلك الناتجة عن الإساءات اللفظية والجسمية. جروح أخرى أصابتنا ونحن في حالة إذعان: أحياناً وفي حالات ضعفنا وحاجتنا، قد شعرنا بعدم التقدير والرفض. في كلتا الحالتين تم تجاهلنا من قبل من كان بإمكانهم مساعدتنا ولكنهم مروا بنا متجاهلين وجودنا. وجروحنا فتترك آثاراً في القلب تُدفع إلى الأسفل وتغطي في تجاوزيف وجودنا. فتقف هذه الإنجراحات في أساس الحواجز التي نخلقها.

هذه الحواجز والجروح التي تُغطيها تمنعنا من الانتماء بصورة صحية لأنها تمنع الاتصال والانفتاح والصراحة. لتحقيق الحرية الحقيقية، مما يعني أن نصل بإنسانيتنا إلى أقصاها، يستوجب إزالة هذه الحواجز. والمغفرة هي عملية إزالة الحواجز هذه؛ أنها العملية التي من خلالها نبدأ بقبول وحب الناس الذين آذونا. وهذه هي المرحلة الأخيرة في التحرر الداخلي.

نتعامل مع الأذى بصور مختلفة. قد نُدفع إلى الرد بالأذى على من ألحق بنا الأذى وقد نُدفع إلى الكلام بسوء عن من تكلم سوء عنا. إلا أن هناك طرفاً أخرى للتعامل مع الأذى. بعضنا يترك الأذى يتقح في الداخل، وهذا يؤدي إلى خلق موقف دائم من الانزعاج المرضي، والشعور بعدم الرضا تجاه الآخرين. ويمكن للأذى الذي نخفيه أن يتحول إلى مشاعر الحط من قيمة الذات كما لو كنا نستحق الأذى لأننا اقتنعنا بانتقاء أية قيمة لنا.

بإمكان الأذى أن يخلق مشاعر الشعور بالذنب. هناك نوعان من الشعور بالذنب، الشعور السيكولوجي بالذنب، والشعور الأخلاقي بالذنب. الأول يستحثه الآخرون فينا، أولئك الذين أشعرونا بأن لا قيمة لنا. غالباً ما يُطلق علماء النفس على هذا النوع من الشعور بالذنب (الخزي أو العار) لتمييزه عن

النوع الثاني، النوع الذي نستحدثه في نفوسنا بعد فعلنا لشيء نعتبره خطأ. الشعور السيكولوجي بالذنب لا يتولد نتيجة لإلحاق الأذى بشخص ما أو ارتكاب جريمة، إنه ذلك الشعور الذي بإمكانه أن يهيمن علينا عندما نشعر بأننا منبوذون كأفراد.

قبل سنين عديدة جاء جون بول إلى "السفينة" من مستشفى الطب النفسي. بعد فترة مرض مرضا ذهنيا شديدا وبدأت الهلوسات تتتابه. غاب عن الواقع وبدأ يعيش في عالم آخر، وكان وضع مخيف له ولنا على حد سواء وقد اجتمعنا جميعا نحن المشاركون بالعناية به مع أيرول فرانكو، طبيبنا النفسي حينها. أردنا أن نفهم السبب الذي استثار الأزمة وكيف نستطيع مساعدة جون بول ليعثر على نفسه ويكتشف الواقع ثانية. ما زلت أتذكر كلمات الدكتور فرانكو: "أنا على ثقة من أن جون بول يشعر بالذنب لوجوده في العالم." وقد ذكرنا بأن هذا الشاب قد تم رفضه ونبذه من قبل والديه، ومن ثم جديده، ومن ثم من قبل عائلتين التزمنا برعايته، وكل ذلك بسبب عوقه. وأخيرا أنتهي إلى مستشفى للطب النفسي قبل أن ينظم إلى السفينة. لم يسبق له طوال حياته أن شعر بأنه مقبول ومحبوب كما هو. لم يشعر أبدا بأي صلة تربطه بأحد. كان على الدوام يمثل إزعاجا وسببا للاضطراب. إن لم نحَب نحس بأننا غير قادرين على الحب وهذا شعور سيكولوجي بالذنب يؤثر علينا في قرارة نفوسنا.

إن الشعور الأخلاقي بالذنب والشعور السيكولوجي بالذنب يغذي أحدهما الآخر. إذا شعرنا بأن لا فائدة منا، فإن السبب في ذلك هو أننا قد أخبرنا بذلك بهذه الطريقة أو تلك. عندئذ سنتصرف وفقا لذلك: سنؤذي الآخرين بالضبط، لأننا نعرف أن لا فائدة منا ولا نستطيع سوى أن نقوم بأشياء لا فائدة منها.

يأتي العديد من المعوقين العقليين إلى السفينة يملؤهم الشعور
السيكولوجي بالذنب. انهم مقتنعون بأنهم سيئون، وأن ليس باستطاعتهم عمل
شيء فيه خير. الغرض من جماعات " السفينة " هو مساعدة الناس في الخروج
من انكسارهم وصورتهم السلبية عن أنفسهم ليكونوا صورة إيجابية عن أنفسهم.
نحن نحاول أن نخرجهم من الرغبة في الموت إلى الرغبة في الحياة، من كره
الذات إلى حب الذات.

ينطبع الشعور بعدم الفائدة في نفوسنا في طفولتنا كلما شعرنا بأننا
منبوذون. وهكذا يتطور الجانب المظلم فينا وينمو في الطفولة في داخلنا، ومن
ثم تطفو هذه المشاعر إلى السطح أثناء لحظات الاكتئاب الناتج عن الانغمار
بمشاعر تشلنا وتمنعنا من تحمل الحياة. هذا الشعور السيكولوجي بالذنب يكمن
كذلك في جذر افتقارنا إلى الثقة بأنفسنا. لا يفتقر العديد منا إلى الثقة في قدرتنا
على العمل بكفاءة فحسب، بل إلى الثقة في قدرتنا على أن نحب وأن نُحب في
المقابل.

عندما أستمع إلى الناس أكتشف كم أن العديد منا يتقلهم عبء الشعور
بالذنب. يشعر الأمهات و الأباء بالذنب لأنهم قاصرون عن أن يكونوا أمهاتٍ
وأباء كاملين. ويشعر الأزواج والزوجات بالذنب لأنهم لا يعرفون كيف يحبون
ويعتنون بشريك حياتهم، ربما ينتابنا الشعور بالذنب جميعا لأننا لسنا تماما من
نريد أن نكون، إلى حد أننا جميعا محبطون في داخلنا فنقوم باحباط الآخرين.
فالمسألة هي، إذن كيف نحرر أنفسنا من عبء الشعور بالذنب؟ كيف نستطيع
إعادة اكتشاف الثقة والإيمان الذي يساعدنا على الانفتاح على الآخرين وأن
نفعل شيئا جميلا؟ كيف بإمكان الأم والطفل أو الزوج والزوجة، أن يحرر

أحدهما الآخر من المشاعر التي تمنعهم من عيش الحياة بملئها؟ كيف يمكن إيجاد مواجهة بينهم تؤدي إلى إطلاق طاقة جديدة، تحويل قلوبهم؟ هذه هي الطاقة التي يشير إليها الفيلسوف مارتن بوبر في كتاب "أنا وأنت" عندما يتكلم عن شخصين يلتقيان مع بعضهما لقاءً صادقاً ويكشفان دواخلهما أحدهما للآخر.

تكلمت في الفصل الأول عن الحب الذي يحول الناس، الحب الذي حول كلاوديا الشابة المصابة بعوقات شديدة في جماعة " السفينة " في الهندوراس. هذا الحب يكشف، ويفهم، ويفوض، ويحتفل، ويساعد الناس على الانتقال من الرغبة في الموت إلى الرغبة في الحياة. هذا الحب يحررنا من برائن الشعور السيكولوجي بالذنب، ذلك الشعور الذي يشلنا. إنه حب يسري من شخص يؤمن بنا ويريدنا أن نعيش. إلا أننا يجب ان نفتح قلوبنا لاستقبال هذا الحب. بإمكاننا أن نضع العراقيل أمامه، ونرفض الإيمان به، أو أن نرفضه تماماً. أحيانا تكون الرغبة في الموت طاغية.

هناك، كما أعتقد، يكمن سر الحرية الداخلية. بإمكاننا إما أن نرحب أو نرفض قوة الحب التحويلية. المغفرة عرضٌ لهذا الحب الذي يحررنا من قوى الشعور بالذنب السيكولوجي والأخلاقي. والمغفرة هي الهدية القصوى، أعظم العطايا على الإطلاق، لأنها العطاء الذي يحرر من كل ما هو مؤذي من الماضي، الأذى الذي يمنعنا أن نعيش الحياة بملئها ويمنعنا من أن نحب الآخرين.

أذى الأشخاص

لنلقي نظرة على الأنواع المختلفة من الأذى. أولاً هناك أنواع الأذى الصادر من الأشخاص: فرد يجعل فرداً آخر يعاني. جاءت طالبة جامعية لمقابلتي. وأحسست من طريقة كلامها عن الرجال ألم كبيراً يخالجها. سألتها أن تحكي لي عن علاقتها بوالدها. حملقت فيّ وقالت " أنا أكرهه " أردت أن أعرف المزيد. أخبرتني بأن أباهما كان مدرس الفلسفة في مدرسة مسيحية وكان الناس يكونون له حبا واحتراما جَمِين. إلا أنه عندما كان يأتي إلى البيت كان يغلق على نفسه في غرفته، " لم يأكل معنا أبداً، أنا أكرهه."

ليس سهلاً على امرأة شابة أن تشعر بأنها مرفوضة ومستهان بها من قبل أب كان من الواجب عليه أن يشجعها ويدعم خطأها. لقد جعلها تشعر بأنها زائدة لا فائدة منها. رفضه لها غذاها بإحساس عام بالرفض وخلق فيها توتراً عميقاً، وسخطاً، وتمرداً. وقد أثر ذلك على كل علاقاتها بالرجال. كانت هذه المرأة الشابة بحاجة إلى أن تُحرر من الكراهية التي كانت تتحكم بحياتها. كان من المهم لها أن تبدأ بفهم والدها، وهي عملية يمكن أن تؤدي في النهاية إلى أن تغفر له.

عندما تبدأ بفهم والدها وتعرف سبب تصرفاته التي أسخطتها، ستكون قد وضعت خطأها على درب المغفرة. إلا أن هذا الغفران يمكن أن يصبح لقاءً حقيقياً وشراكة بين القلبين، إذا كان والدها راغباً في مراجعة سلوكه، إذا أدرك

مقدار الأذى الذي ألحقه بابنته وسألها المغفرة. عندها فقط تكون السلوى والعزاء، والشفاء التام والتحرر لدى كليهما.

أحيانا لا تكون الموضوعة الجوهريّة هي الفهم، بل إدراك وجود عوائق في داخل الشخص الذي يلحق بنا الأذى، عوائق يمكن أن تؤدي إلى رفض الإقرار بالذنب. دخلت امرأة شابة السجن وكانت فيه عدة سنوات لأن رجل شهد ضدها زورا. في السجن اختبرت تحولا روحيا بمساعدة قسيس السجن. في أحد الأيام طرح هذا القسيس موضوع منح الغفران لهذا الرجل الذي ألحق بها كل هذا الأذى " كلا " ردت عليه " لا أستطيع أن أغفر له أبدا، لقد ألحق بي أذى كبيرا إلا أنني أصلي كل يوم إلى الله ليغفر له."

من الظاهر أن هذه المرأة لم يكن باستطاعتها أن تغفر إلا بعد أن يكون مضطهدها قد ندم وتاب تماما عن فعلته وإلا بعد أن يطلب المغفرة. إلا أنها أظهرت كذلك بأنها لم تكن تريد لكرهيتها له أن تتحكم بها. وأكثر من ذلك كانت تريده أن يعيش، فبالحقيقة، كانت تصلي من أجله. في بعض الأحيان يكون التحرك باتجاه التحرر أسهل لدى الضحية من مرتكب الأذى بحقها. في الإقرار بالذنب وطلب المغفرة، وفي حالات أخرى قد يكون الأذى قد وصل إلى أغوار عميقة لدى الضحية بحيث أن التحرر التام يستغرق وقتا طويلا وعملية مؤلمة. فكر في الذين نجوا من معسكرات الاعتقال، وفكر في التوتسي والهوتو الذين نجوا من المذابح في رواندا.

**الانغلاق داخل ما
يعجب المرء وما لا يعجبه**

معظمنا ليس بحاجة إلى التعامل مع نوع الكراهية الذي كانت تشعر به طالبة الجامعة والمرأة السجينة، إلا أن لنا جميعا ما نفضله بصورة قاطعة وما نرفضه بصورة قاطعة. ونكتشف هذه الأشياء عندما نعيش مع الآخرين في عائلة، وفي مكان العمل، وفي جماعة، أو غيرها من المجموعات. نحن ننجذب إلى بعض الناس وننفر من الآخرين، نحن نوزع المديح واللوم بنفس السهولة. وحتى لو لم نُطري أو نلوم، فنحن نوزع الناس ونقسمهم إلى فئات بسهولة كبيرة. الناس الذين ينتمون إلى كنيسة أخرى أو حزب سياسي آخر، أو الذين يلتزمون بقيم تختلف سرعان ما يحصلون على وصمة نلصقها بهم. ونعطي للذين ينتمون إلى عرق آخر أو طبقة اجتماعية أخرى مكانا في تدرج نظام العالم كما نراه نحن. نحب أن نرى أنفسنا في قمة الهرم، ننظر من فوق إلى المختلفين عنا، لا نراهم كأخوة وأخوات لنا، بل نوزعهم بسرعة إلى فئات، كبشر نقيم الحواجز بيننا بسهولة كبيرة.

إلا أن ما نرفضه في الآخرين ليس كله دون أساس. هناك الذين يُخسوننا قيمتنا. وهناك من يوقظ فينا مخاوف نائمة. وهناك من يُشعرنا بالقلق والانزعاج. بعض الناس يريدون أن يملكوننا، فنحس بأننا مُقيدون في حضورهم. وهناك من يظهرون كخصوم أو أئداد لنا في هذا المجال أو ذاك. لكل هذه (المكروهات) شيء واحد مشترك: أنها تتبع من ذات الشعور بالخطر على ذاتنا كما نفهمها.

ما نحبه وما نكرهه يحدد حاجاتنا ومخاوفنا الطبيعية. نحن ننجذب إلى من يبدو أنه يؤكد ويشجع وجودنا، إلى من يحبنا ويعجب بنا. نحن نرفض من لا يؤكد وجودنا أو يشجعنا بل يحكم علينا أو يديننا. قد لا نسجن أنفسنا في

موقف متشدد مثل الكراهية، إلا أن ما نحبه وما نكرهه يخلق بالمثل حواجزاً من التعصب، خلف هذه الحواجز يمكن أن نتصرف وكأن الآخرين غير موجودين، أو كما لو كانوا لا ينتمون إلى إنسانيتنا المشتركة. لنحزر حقيقة؛ علينا أن نبذل جهداً في الاتصال مع هؤلاء الذين لا يعجبوننا، وأن نحاول أن نفهم ونتقبلهم كما هم، وأن نختبر إنسانيتنا المشتركة. هذه هي المغفرة.

كراهية

مجموعة من الناس

ثمة هناك الكراهية التي تولدها الجماعات إحداها في الأخرى. في كتابها " صديقي الأبيض الأول: اعترافات حول العرق، الحب والمغفرة. " تكتب الكاتبة الأمريكية باتريشيا ريبوند Patricia Raybon عن القمع الذي شعرت به في الولايات المتحدة وكيف قادها ذلك إلى كراهية ذوي البشرة البيضاء. تكتب قائلة:

" لقد كرهتهم لأنهم أعدموا بصورة غير قانونية، واحتجزوا وسجنوا وأهملوا ونبذوا وطردها واستغلوا عددا لا يحصى من الثقافات والجماعات بوقاحة و تحدي للمعتقدات والمفاهيم البشرية. "

وتستمر بالقول بأن كراهيتها، بغض النظر عن شرعيتها وصحتها، كانت تمحو هويتها واحترامها لذاتها. كانت تلك الكراهية تعميها عن محاولات تقوم بها فتاة بيضاء في المدرسة لإقامة علاقة صداقة معها. وقد اكتشفت أنها

بدلاً من انتظار أن يقوم البيض بالسعي إلى طلب المغفرة عن الجور والظلم الذي تسببوا به، كانت بحاجة إلى أن تطلب هي المغفرة عن الكراهية التي كانت تعتمل في ذاتها، وعن افتقارها إلى أن ترى في الشخص الأبيض شخصاً وليس مجرد جزء من عرق ظالم.

يمكن للأذى أن يكون مؤلماً جداً إلى درجة يدفع بعض الضحايا إلى إقامة حواجز كثيفة لحماية أنفسهم من المزيد من الألم. إلا أنه إذا تحقق التحرير وأصبح الضحايا السابقون هم الأسياد الجدد، يكمن خطر أن يظلوا قابعين وراء تلك الجدران السميكة، بحيث يصبحون بهذا الشكل أو ذاك، مثل أسيادهم القدامى: يتخذون مواقف دفاعية مغلقة ويتحولون إلى أناس عدوانيين.

وبدلاً من الكشف عن كراهيتهم لجهة القمع وعن رغبتهم في الانتقام يتمسكون بمشاعر الدونية السابقة التي ابتلوا بها بعد أن يقتنعوا بدونيتهم، يظلون عاجزين عن الفعل للكفاح من أجل حقوقهم. ويتحولون إلى جلادين لأنفسهم. على المقموعين أن يتحرروا من هذين الموقفين: كراهية الآخرين وكراهية أنفسهم. أعتقد إنها الطريقة الوحيدة أمام المنسحقين في هذا العالم ليحققوا الحرية والسلام الداخليين.

في عام 1996، عندما كنت في زيارة لرواندا، أخبرتني امرأة شابة بأن

(75) من أعضاء عائلتها ذُبحوا في مذبحه. قالت لي:

"هناك كراهية جمّة في قلبي لا أعرف ما الذي أفعله بها." وقالت أيضاً:

"يتكلم الناس عن العزاء، ولكن أحداً لم يطلب مني أن أعفر لهم."

تترك جرائم القمع والمذابح جروحاً عميقة في النفس. هل يمكن لهذه الجروح أن تُشفى؟ لتتمكن من التحرر، كانت هذه المرأة بحاجة إلى المساعدة

لثُعِينها على تقبل مشاعر السخط والتمرد والانفعالات التي كانت تُشعرها بالذنب. ولكن أليست هذه ردود فعل صحية وطبيعية؟ من المهم التعبير عنها، لو أن هذه المرأة لم تعبر عن ردود فعلها، وتقبلت الرعب والظلم الذي حل بشعبها، ألا نشعر بأن شيئاً ما على غير ما يُرام؟ الفتور في هذه الأوضاع دليل على الاكتئاب ورفض الحياة. إلا أن هذه المرأة تمكنت من أن تقول انها لا تريد الانتقام من الناس الذين قتلوا عائلتها. كانت قد شبعت من مناظر القتل.

المغفرة تتم من جانب واحد وتبدأ عندما يرفض الضحية، وقد عثر على منبع للقوة، أن يسعى إلى الانتقام، أو كما كان حال المرأة المسجونة يبدأ بالصلاة لكي يتغير الظالم، ويعيد اكتشاف الحقيقة، ويقر بالطرق الشريرة التي اتبعها. فالمغفرة عندها هي الأمل في أن يكتشف الظالمون إنسانيتهم المخفية تحت انكسارهم. وتصبح المغفرة عزاءً وسلوى ولحظة مشاركة قلبية إذا سعوا إلى الحصول على المغفرة.

تحرير أنفسنا من قوة الكراهية

كتبت صديقة لي عن جدّها، وهو أسترالي حارب في الحرب العالمية الأولى. وكان قد عُرض للغاز السام من قبل الجيش الألماني وقد أصيب بعجز جزئي دائم. وقد ظل يشعر بالمرارة تجاه كل الألمان. وقد سمع شعوره بالمرارة مشاعر كل العائلة واستمرت الكراهية إلى الجيل الثالث، وصلت إلى صديقتي وحكت لي في رسالتها كيف حدث لها أن اكتسبت مواقف جدّها وتأثرت باللغة

التي كان يستخدمها في وصف الشعب الألماني: كان يقول عنهم " هؤلاء الهون الحقراء " وقد أستغرق هذه المرأة وقتا طويلا إلى أن تمكنت من التغلب على ما ورثته عن جدها. كانت تلك عملية رفضها الفعال للمواقف المغروسة في نفسها منذ طفولتها. كتبت تقول: " حاولت طوال حياتي أن أتخلص من تعصي تجاه الألمان، تلك التعصبات التي تمت برمجتها في داخلي. "

يمكن لكلمات الكراهية أن تصبح سبنا لقلوبنا وكذلك يمكن لإرث المرارة المترسبة في نفوسنا أن يصبح أيضا سبنا لهذه القلوب. تلك هي واقعية الأداء الحياتي البشري إلا إذا اخترنا طريق المغفرة، كأشخاص وكجماعة على حد سواء.

تستمر صديقتي في رسالتها قائلة:

" أنا أفكر دائما بالمبدأ المستخدم من قبل مواطني أمريكا الشمالية والذي يقول، على المرء في كل القرارات المهمة، أن يفكر بالعواقب والنتائج التي ستؤثر على الأجيال القادمة... لا بد أنه يوجد الملايين والملايين منا ممن يحملون جراح اللا . مغفرة وينقلوها إلى الجيل الثالث والرابع . أو حتى أطول من ذلك! والعالم يحمل هذه الجراح، وحروب وسلام العالم يعتمد على طريقة تعاملنا معها. "

محبة الأعداء

في قلب الرسالة المسيحية الدعوة إلى محبة الأعداء. يقول يسوع

مُشدداً:

" أحبوا أعدائكم، واحسنوا إلى مبغضيكم، وباركوا لاعنيكم، وصلّوا لأجل المسيئين إليكم. " (لوقا 6: 27 - 28)

قال يسوع كلماته هذه في الجليل بالقرب من بحيرة طبرية. تحكمت قوى مختلفة بالمنطقة على مر القرون العديدة: البابليون أولاً، ومن ثم الفرس، وفيما بعد الأغريق، وبعدهم الرومان. وقد كره الناس، طبيعياً، هذه الهيمنة، وقد انسحقت كرامتهم وحریتهم، وسعوا إلى التحرر، وغالبا ما كان يتم ذلك باستخدام العنف كوسيلة. حيث كان بإمكان الناس أن يستخدموا شعار " مقاتلي الحرية " لوصف الذين لجأوا إلى العنف. إلا أن الرومان كانوا سينظرون إليهم كإرهابيين. بعد ولادة المسيح بفترة، قام شخص يدعى يهوذا حزقيا بقيادة تمرد عنيف في الجليل تم سحقه من قبل الرومان. ويخبرنا فلافيوس يوسيفوس - وهو مؤرخ يهودي من القرن الأول الميلادي-، عن الرد الروماني على التمرد، قام الرومان بصلب (2000) من الجليليين. وها هو يسوع يطلب من الجليليين أن يحبوا أعدائهم! ويصلوا من أجل الذين سقوهم! تصور السخط الذي اعتمل في صدورهم، بإمكان المرء أن يسمعهم يصيحون: " كلا أنا أكره الرومان، أريد أن أقتلهم! " أو " لقد صلبوا والدي، أخي، أبني، عمي... " وعندما نقرأ كلمات يسوع داعياً إلى محبة الأعداء في مثل هذا السياق، قد يبدو الأمر لنا مُغرِقاً في المثالية، بل وفي العاطفية. كان من الممكن لكلمات يسوع أن تثير الاستقرار في الجليليين، وكان يمكن أن تبدو كلمات شخص جبان، شخص يخاف العنف والمواجهة. بل ربما تصوروا يسوع عميلاً للرومان يحاول إخماد الطموحات الحقيقية للشعب اليهودي في التحرر. إلا أن يسوع ما كان لا مُحرضاً، ولا مثالياً يقدم وعداً بالتحويل والتحرر الداخلي، ولو كان تم قبوله لتغيّر تاريخ العالم.

يؤشر الدلاي لاما نفس الحقيقة في البوذية:

يؤكد البوذياتفا على أهمية اكتساب الموقف الصحيح تجاه العدو. لو علمت كيف تكون موقفا عادلا، سيتحول أعداؤك إلى معلميك الروحيين، لأن وجودهم يمنحك فرصة التحمل، والصبر والفهم. وكلما ازداد صبرك وتحملك كلما سهل عليك تطوير قابليتك على الود والعطف والرحمة.

والعفو عن الأعداء مهم في القرآن كذلك:

"عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتهم مودةً والله قدير والله غفورٌ رحيم" (سورة الممتحنة 60 آية 7)

لتنمکن الإنسانية من كسر سلسلة العنف والكره التي انتقلت من جيل إلى جيل، وتتحول من الفوضى إلى النظام، عليها أن ترجع بجديّة إلى كلمات يسوع والدلاي لاما ومحمد.

إنّ "عدو" كلمة حادة جدا. وهي تشير إلى الناس الذين في حالة حرب. ويمكن أيضا استخدامها لوصف الجماعات والأفراد الذين يضطهد بعضهم بعضا، الذين يقيدون حريتهم ويمنعون نموهم. ولأن كلمة "عدو" كلمة عنيفة وحادة، يصبح من السهل علينا أن ننكر أن لنا أعداء. إلا أن المسيح، ومحمد، والدلاي لاما، عندما يتكلمون عن الأعداء، يشيرون إلى شيء يمكن أن يكون أبسط من ذلك بكثير، شيء أقرب إلى الواقع. العدو هو شخص يقف في طريق حريتنا، وكرامتنا، وقدرتنا على النمو والحب، شخص نتجنبه أو نرفض الاتصال به.

كلمتي امرأة عن زوجها قائلة "أنه سعيد عندما أهتم بالبيت والأطفال، وهو سعيد عندما أطبخ أطيب الطعام وأغسل له ثيابه، يستخدمني جنسيا. ولكنه

لا ينصت أو يستمع إلي ولا يعاملني كإنسانة، كان يسأل عن رأبي ومشورتي. هناك سخط كبير يتراكم في داخلي، ولا أعلم ما الذي أفعله لكل هذا السخط." كان زوجها في طريقه لأن يصبح عدوا لها لأنه كان يسحق كرامتها وإحساسها بأنها ذات فائدة. يمكن للمنغصات أن تكبر وتتحول إلى أشياء مُزعجة حقا، يمكن للإزعاج أن يزدهر في السخط، والسخط يمكن أن يتحول إلى الكره. يجب أن نكون على حذر لئلا تنمو بذور ما نكرهه وتتشعب، فكلما يسوع وغيره من المعلمين الروحيين تنطبق حتى على أخف المشاعر السلبية هذه، ما لا يعجبنا. لكي نكون أحرارا حقا، ولكي نعمل من أجل الوحدة والسلام، علينا أن نعالج كل تلك العلاقات التي تسبب الألم والإزعاج و (المرض).

من الواضح أن زوج هذه المرأة كان بحاجة إلى التغيير. ولكن ألم تكن هي أيضا بحاجة إلى أن تتغير؟ لقد أمضت الكثير من الوقت تطيع نزواته، لقد قبلت أن تكون خادمته لمجرد إرضائه. على هذه المرأة أن تكتشف مخاوفها وأخطاءها. كل ما قادها إلى أن تضمن لزوجها سلطة غير صحية. لا شك في أن كلا الزوجين كان بحاجة إلى العون. فالمغفرة بالنسبة للمرأة لم تكن تعني قبول زوج قمعي النزعات ومتحكم، بل كانت تعني أن تحقق ذاتها بكمال أكبر، بأن تقف في وجه الموقف وتؤكد ذاتها. بالحب بالطبع، وليس نتيجة للسخط. وبعدها تكون مستعدة لتقبل النتائج. محبة العدو ليست واقعا روحيا وحسب، بل شيء إنساني جوهريا.

كلنا نحن الذين نفكر بالسلام، أو حتى في الفعل البسيط في الانتماء إلى إنسانيتنا وعملية النمو وصولا للنضج، علينا أن نأخذ بجدية حقّة هذه الدعوة إلى محبة أعدائنا. إنها دعوة للتغيير، دعوة لأن لا نتحكم بنا بعد الآن مخاوفنا

ولا يتحكم بنا الأذى، بل أن نقيم بدلا من ذلك علاقة حقيقية صادقة مع أولئك الذين لا يعجبوننا.

إلا أنه يبدو من المستحيل علينا أن نحب الذين لا يعجبوننا أو نكرهمهم. كيف نستطيع أن نحب أعداءنا؟ ألسن يقوموا بالتهامنا إذا بدا علينا الضعف والهشاشة ونحن أمامهم؟ كيف نستطيع الانفتاح أمام شخص يريد أن يقيد حياتنا وحریتنا؟ الحياة تحمي نفسها من الموت. إذا رأينا حجرا يتدحرج باتجاهنا، ألا نحمي أنفسنا منه بصورة غريزية؟ كيف نستطيع الانفتاح أمام شخص نظنه يريد الأذى بنا سواء أكان ذلك أذى جسمانيا أو سيكولوجيا نفسيا؟ ألا نحتاج إلى [إجراءات] نحمي بها أنفسنا عندما يواجهها شخص يريد أن يمنعنا، واعيا أو لا واعيا، بطريقة أو بأخرى، من تحقيق حياة مزدهرة متألفة.

الوعي في صميم المغفرة

تبدأ المغفرة عندما ندرك ونتعرف على مخاوفنا وعلى الحواجز التي أقمناها داخل نفوسنا. لن تبدأ باتريشيا ريبون التي تغلبت على كراهيتها لكل الناس ذوي البشرة البيضاء، وكذلك صديقتي الأسترالية التي عرفت كيف تتغلب على كراهيتها لكل ما هو ألماني، في الانفتاح على " عدوهما " إلا بعد أن تدركا طبيعة المرارة والسخط التي كانت تفور بها نفساهما.

إن الكراهية مثل (الغغرينا)، تأكل المرء شيئاً فشيئاً. كل رفضنا للاتصال مع الآخرين والانفتاح عليهم يجعلنا نقفل على أنفسنا في سجن. ولكن كيف نتحول من الاتهام، بغض النظر عن مقدار الصدق الذي ينطوي عليه، إلى الانفتاح والتقبل، بل والرغبة في رؤية أعدائنا وقد تحرروا من مخاوفهم وأنايتهم؟ تبدأ العملية عندما نصبح على وعي بالجدران التي في داخلنا، تلك الحواجز المبنية على الخوف والسخط اللاواعي. تبدأ العملية عندما ندرك كيف أن انفتاحنا على من ندعوهم أصدقاء يمكن أن يكون مجرد حماية ضد المعاناة والوحدة.

هذا الكشف عن انكسارنا ومخاوفنا وأخطائنا لا يتم بسهولة، وذلك بالضبط لأنه يمكن أن يعزز ويقوي شعورنا بعدم الفائدة، وانعدام ثقافتنا في أنفسنا. وبدلاً من أن تساعدنا في النمو في الحب والغفران والانفتاح، يمكن لهذه العملية أن تسجننا في أشكال دقيقة من الاكتئاب والقصور. أين نجد القوة الداخلية الأقوى من مخاوفنا وحواجزنا، والتي تستطيع أن تحررنا من السخط وما نكرهه وتجعلنا نفتح على الناس الذين ألحقوا الأذى بنا؟.

أنا مؤمن بأن قوى الحياة ورغبات المشاركة مع الآخرين أقوى من قوى الموت والكراهية. في حياة كل منا يوجد وقت يحدث فيه حدث يدعونا إلى التحرر والانفتاح. في نقطة الظهور (التجلي) هذه نرغب في الخروج من جو الاكتئاب والسخط. وندرك بأننا مسجونون داخل أنفسنا أو داخل مجموعتنا، ونجد من الصعب إقامة علاقة مع الآخرين.

قبل عدة سنوات كتب إليّ فريد، وهو نزيل سجن. أخبرني بأنه ارتكب جريمة نكراء وأنه ذهب إلى السجن. وفي أحد الأيام تصرف بعنف مع رفاقه

المساجين وانتهى به الأمر إلى الاحتجاز الانفرادي. مُدركاً أنه فقد كل شيء، عائلته، عمله، قدرته على الحركة والانتقال، وكرامته واحترامه لنفسه فرغب في الموت. إلا أنه فوجئ بما أسماه " نجوم حب صغيرة تظهر في داخله"، تحثه أن يعثر على ذاته ويعيد اكتشاف الحب. كانت لحظة نعمة إلهية. ولن يشع شعاع النور الخافت هذا، شعاع الأمل، في العديد منا إلا بعد أن نصل إلى القاع، إلى الدرك الأسفل من الحياة، وإلا بعد أن يبدو وكأن كل شيء قد ضاع. فلا ندرك الظلام الموجود داخل نفوسنا فحسب، بل وندرك كذلك نور الأمل. في تلك اللحظة نبدأ عملية ارتقاء وصعود.

الانفتاح على الآخرين لا ينطوي على إدراك مخاوفنا، والظلام الساكن فينا وانكسارنا وحسب، بل وحضور النور والحب والطاقة التي تزودنا بالرغبة في التحرك إلى أمام، إلى الانفتاح ولا نسمح أن يتحكم الظلام بنا.

الرغبة في التحرر من الخوف

لحظة ولادة هذه الرغبة في التحرر لحظة مباركة، لحظة نعمة. يمكن لذلك أن يحدث عندما نقابل الأشخاص الأحرار حقاً والذين يعلنون مرتلين حريتهم ترتيلاً. أنهم يكشفون لنا أن الحرية ممكنة وأنها تجلب معها ازدهار القلب بالسلام والفرح. قد تحدث هذه الرغبة في التحرر عندما نلتقي شخصاً يحبنا ويثق فينا كما نحن بالضبط، والذي يرى من خلال مخاوفنا وكتبنا النفسي،

كل ما هو كامن فينا مما يمكنه أن يزهو مع الوقت. الحب يدعونا إليه مثل مغناطيس، ويجتذب طاقات جديدة وعميقة.

هذه الرغبة في التحرر قد تأتي خلال الأحلام، أثناء لحظات الهدوء الداخلي أو عندما نختبر حضور الله الذي يحبنا كما نحن بكل إيجابياتنا وسلبياتنا. في هذه " اللحظات المباركة " ينكشف لنا وعيٌ بمعرفة من نحن: ونصبح على دراية بأهميتنا، وقُدسيتنا، هذا الوعي يكون أعمق من أي أذى سبق له وأن حكم حياتنا. للحظة نحس أن الخوف والسخط واللامبالاة والرغبة في الانتقام، ومشاعر اليأس وعدم الفائدة ما عادت تتحكم بنا. يولد نور خافت، رغبة في الكينونة والوجود. ويرجع الأمل في حياتنا.

يرى النبي حزقيال -في الكتاب المقدس- رؤية وادٍ مملوء بعظام ميتة. وهذه العظام تمثل عظام شعب إسرائيل، يقول هذا الشعب:

" يبست عظامنا وخاب رجاؤنا وانقطعنا. " ثم يدعوهم النبي حزقيال باسم الله ويتكلم معهم: " سأفتح قبوركم وأصعدكم منها يا شعبي... وأجعل روحي فيكم فتحيون. " (حزقيال 37: 11 - 14).

هناك لحظات نعمة نشعر بها عندما نُدعى إلى النهوض من التراب واليأس الذي يملأ حياتنا ومن ثم نمثلُ حياةً.

مبادئ وخطوات باتجاه المغفرة

أريد أن أقترح وجود ثلاث مبادئ أساسية تستند إليها المغفرة في التحرك باتجاه العزاء والسلوى.

المبدأ الأول: لا يمكن أن نغفر لأنفسنا أو للآخرين إلا إذا آمنا بأننا جميعا جزء من إنسانية واحدة. ما يعنيه هذا عمليا هو أنه لا توجد مجموعة متفوقة (أرقى) من مجموعة أخرى ولا يوجد فرد متفوق (أرقى) على فرد آخر. يبدو القول أننا جميعا متساوون في الأهمية زيادة في الكلام، إلا أننا كم نتصرف وكأنه قول صحيح! كم مرة كشف التاريخ عن هذه الحقيقة الإنسانية - حقيقة كوننا متساوون! ليس كثيرا. ولذلك فإن هذا القول بحاجة إلى أن يكرر مرارا وتكرارا. قد نختلف في العرق، الثقافة، الدين، القابليات، ولكننا جميعا متشابهون، نمتلك قلوبا قابلة للإنجراح، وبنا حاجة إلى أن نحب ونُحَب، وبنا حاجة إلى النمو، وتطوير قابلياتنا، ونعثر على مكاننا في العالم، نحن جميعا نرغب في أن نكون لنا قيمة ونكون ذات فائدة، ونحن جميعا متساوون لأن كل منا تعرض للأذى خلال حياته بصورة أو بأخرى. لقد عُرسَت المخاوف فينا، نجد صعوبة في الارتباط بالآخرين، في داخلنا يوجد قدر معين من الفوضى والمعاناة والعنف.

كي نتمكن من دخول درب المغفرة، علينا أن نتخلص من مشاعرنا في التفوق والدونية على حد سواء. سبق لكل منا أن آذى شخصا آخر، وسبق

أن تأذى كل منا من قبل شخص آخر. وعليه يجب أن نمتلك حياتنا ونكون مسؤولين عنها وعن المستقبل أيضا. نحن جميعا مدعوون لأخذ مكاننا طوعا وبحرية في العالم.

المبدأ الثاني: المغفرة تعني الإيمان وأن بإمكان كل واحد منا أن يتغير وينتور، وأن الخلاص البشري أمر ممكن. غالبا ما نسجن أنفسنا في أحكام جاهزة " إنه لص " " أنها معوقة "، " إنه فصامي " ربما سرق هذا الشخص شيئا، وربما كان ذاك الشخص معوقا، ولكنهم أكثر من أن يكونوا مجرد تلك الأحداث. أنهم أناس إذا أحبوا وأعينوا ووثقَ بهم، يستطيعون بطرق بسيطة أن يتعرفوا على أخطائهم وانكسارهم ويستطيعون النمو، في الإنسانية، في حريتهم الداخلية وأن يقدموا أفعالا بسيطة من الحب.

المبدأ الثالث: المغفرة تعني التوق إلى الوحدة والسلام. الوحدة هي كنز الإنسانية الأكبر. أنها المكان حيث يستطيع كل واحد منا النمو في حديقة الإنسانية، ليكبر ويحمل ثمارا ويعطي الحياة. وذلك شيء نتوق إليه جميعا. عندما يرى الأب في مثل الابن الضال ولده أشعث رث اللباس يعود إليه نحيفا قدرا غير حليق، يهرع إليه ويقبله. لا حكم ولا تلميحات إعتراضية، ولا حتى " أنا أعفر لك " فإن ما كان يتوق الأب إليه هو أن يكون مع ابنه ثانية، أن يعيش معه شراكة القلب. كانت رغبته في ان يكون مع ابنه أعظم من أي أذى يمكن أن يكون قد لحق به. إذا أحب إنسان ما حبا عميقا فإن الغفران أمر لا بد منه. المحب يرغب في أن يكون مع محبوبته، وهذا كل ما يهم. فإذا أحببنا وأردنا لكل الناس أن يكونوا أحرارا ويحملوا ثمارا، سنكون شعب الغفران. لن يعود الأذى الداخلي أو الحاجة إلى إثبات جدارتنا وتحكمنا، سنتوق أن

ينمو جميع الناس في سلام ووحدة. أن يكون المرء صانع سلام ويعمل من أجل الوحدة يعني أن يخوض صراعا وكفاحا من أجل ذلك. ليس من السهل قبول المغفرة ولا إعطاؤها وليس من السهل علينا أن نخسر تمرکزنا على الذات. ليس من السهل التصرف ضد القصور الذاتي أو ضد مشاعر الخوف التي تمنعنا من الدخول في الصراع.

تکمن في قلب عملية المغفرة؛ الرغبة في التحرر من العواطف السلبية، ومن الأثياع البغيضة ومن الكره، هذه هي الرغبة التي تُطلقنا في طريق المغفرة الحقيقية.

بعد أن اقترحت ثلاثة مبادئ للمغفرة، دعني الآن أقترح خمس خطوات:

الخطوة الأولى: رفض السعي إلى الانتقام.

الخطوة الثانية: الأمل الحقيقي القلبي الأصيل في أن يتحرر الظالمون. ليس بإمكان الضحية أن يغير قلبا يملؤه الخوف والكراهية، ولكن بإمكان المرء أن يأمل ويصلي أن قلب الظالم الذي هو من حجر قد يتحول في يوم من الأيام إلى قلب من لحم ذي أحاسيس.

الخطوة الثالثة: هي الرغبة في فهم الظالمين، لماذا أصبحوا مختلفين وكيف تحولت قلوبهم إلى قلوب قاسية متحجرة، وكيف بالإمكان أن يتحرروا من طبيعتهم الظالمة.

الخطوة الرابعة: هي الإقرار بالظلام الذي في داخلنا. نحن أيضا ألقنا أذى بالآخرين وربما أسهمنا في تقسية قلوب الظالمين.

الخطوة الخامسة: هي الصبر. يستغرق الضحية وقتاً ليتحرر من الانحصار والكرهية، ويستغرق الظالم وقتاً ليتطور ويتغير.

تغيير قلب الظالمين

إنّ العزاء والسلوى شأن ثنائي، وهي حالة مكملية لعملية الغفران، كل طرف يتقبل الطرف الآخر، كل طرف يقر بمخاوفه وكرهيته، وكل طرف يوافق على أن طريق المحبة المتبادلة هو الطريق الوحيد للخروج من عالم الصراع. إلا أنه من الصعب على الظالم أن يُقر بالذنب. لنحاول فهم السبب في ذلك. فقد يساعد ذلك كلا الطرفين على ممارسة السلطة برهافة أكبر والسير في طريق المغفرة.

للقوة اتجاه: أنها تُمارس دائماً من أعلى إلى أسفل من القوي إلى الضعيف. إحدى ممارسات القوة في العائلة على سبيل المثال هي سلطة الأبوين على أطفالهم. إلا أن القوة غالباً ما تتكافأ مع ما هو حق. ألا يشعر معظم الأهل بأنهم يعرفون ما هو الأفضل لأطفالهم؟ ألا يشعر كل الذين في مواقع القوة والنفوذ والسلطة بأنهم يعرفون الحق ويبدون غير قادرين على قبول أي نوع من الانتقاد؟ ممارسة القوة تعطي أصحابها إحساساً بالهوية وبالأهمية.

أصحاب السلطة الذين يشكون أو يتذبذبون في قراراتهم لا يُلهمون الثقة في الآخرين. بأشكال وصور عديدة يتخيل الأقوياء بأنهم على صورة "العظيم القدرة"، وإن من الوجوب أن لا يتعرضوا للمساءلة، بل يُطاعوا وحسب. مع ذلك

فنحن جميعا منكسرون، منطوون إلى الداخل، داخل ذواتنا، متمركزون على الذات، نحتاج إلى النجاح، القوة، واعتراف الآخرين بنا. القليل جدا ممن يمتلك النضج والحكمة الضروريين لممارسة السلطة بطريقة محبة مُحررة، خلال ما يمكن أن نسميه " بالقيادة الخدومة"، من خلال مساعدة الناس في استعادة ثقتهم في أنفسهم والنمو بحرية وفي الحرية.

من الصعب على البعض من أصحاب السلطة أن يسمحوا لقانون الحب الأعلى أن يتحكم بهم. ومن الصعب عليهم بالمثل الإقرار بأنهم آذوا من هم أضعف منهم. نمتلك جميعا القدرة على دفع كل الأخطاء التي ارتكبتها إلى الثنايا السرية الدفينة في ذواتنا. ونحن نطور وسائل معقدة لإسكات الضمير ومحو أي أثر للندم. لقد وصف علماء النفس هذه القدرة على تخدير أنفسنا، وقد سماها فرويد با " الدرع الحامي"، نخلقه ونحيط به مشاعرنا التي تخيفنا.

كتب اللاهوتي الألماني غايكو شولت Geiko Muller-Fahrenheit، الذي عمل مع مجلس الكنائس العالمي كتابا رائعا عنوانه " فن الغفران " يقول فيه بأن الناس عموما يفلحون في نسيان الأخطاء التي ارتكبوها. يقول:

" لا يمكن أن نتوقع وجود مغفرة حيث يفتقر المخطئون، أفرادا أو جماعات إلى شجاعة نزع أسلحتهم أمام ضحاياهم. إنه فعل أليم وصعب."

عندما يقوم الناس الذين خلقوا شعورا بالأهمية وخلقوا لأنفسهم هوية شخصية من خلال ممارسة السلطة بالكشف عن أخطائهم ويتنكرون للشر الذي في داخلهم، ويسألون المغفرة من ضحاياهم، ثم يهجرون التفوق الذي تخولهم إياه القوة ويتقبلون أن يخسروا تقديرهم الذاتي، يكونون قد أصبحوا كالعُراة ويصبح إلحاق الأذى بهم سهلا. عندما يكسرون درعهم الواقى الذي أعطاهم

إحساسا زائفا بالقيمة، يمكن أن تولد فيهم المعاناة والموت الداخلي. إلا أنهم يكونون في نفس الوقت قد تحرروا من الشعور بالذنب ويكونون قد وُلدوا شعورا جديدا بقيمتهم وأهميتهم أعمق من شعورهم السابق. ذلكم هو السبب في عمق العاطفة التي يشعر بها الطاغيين والمظلومون على حد سواء عندما يشعرون بالعزاء.

إنه أمر صعب دائما ممارسة السلطة بحكمة وبرغبة في الخدمة. أنا أعرف بأنني كَبَبْتُ الآخرين وضيقت عليهم في "السفينة" عندما كنت في موقع القيادة. من الصعب علينا الإقرار بمساوئنا والأخطاء التي قد نكون ارتكبناها بل ويصبح الأمر أصعب عندما تكون هذه الأخطاء خطرة وعندما نكون قد جرحنا الآخرين جروحا بليغة.

ومن الصعب كذلك على الأشخاص الذين يثقون بقادتهم أن يصدقوا بأنهم ارتكبوا أخطاء. العديد منا مبرمج لطبيع ولا يناقش أو ينقد. هناك نمو حقيقي فينا عندما نُقَرُّ بمثل هذه الأخطاء ونتخذ الخطوات اللازمة لتصحيحها.

قوة الله الرقيقة

لأجل لتحقيق العزاء؛ نحتاج في معظم الحالات إلى قوة متعالية على الظالم والمظلوم على حد سواء، يكتب غايكو شولتز قائلا:

"في الملاذ الأخير، لا يستطيع البشر تحديد الجوهر الذي يكون إنسانيتهم. إنه أمر يتجاوز مقدرتهم. ونحن نعمل في سبيل تحقيق الغفران، نحن مدعوون أن نتذكر بأن كل

منا كبشر مخلوق على صورة الله كلي الرحمة ومثاله. وتلك هي دعوتنا ورسالتنا: أن نصبح مرآيا للرحمة."

نميل جميعا إلى ارتداء الأقنعة، قناع التفوق أو قناع الشعور بالدونية، قناع الشعور بجذوانا وفائدتنا أو قناع الضحية. ليس من السهل علينا نزع أقنعتنا لنكتشف الطفل الصغير في داخلنا، الطفل الذي يخاف الأذى. إلا أن المغفرة تتضمن إزاحة هذه الأقنعة وقبول ذواتنا كما هي: أن نقبل كوننا تعرضنا للأذى، وأنا عرضنا الآخرين للأذى.

ومن ثم، أن نغفر لأنفسنا، يتضمن قبول قيمتنا الحقيقية. وفقدان صورتنا المزيفة، سواء كانت صورة التفوق، أو الحاجة إلى إخفاء إمكانية أن يجلب علينا انكسارنا المعاناة والألم الداخلي. لا نستطيع أن نتقبل هذا الألم إلا إذا اكتشفنا ذاتنا الحقيقية وراء كل الأقنعة وأدركنا بأننا إذا كنا منكسرين، فإننا أجمل وأحلى من ان نخفي وراء أقنعتنا، أجمل وأحلى من أية صورة يمكن أن نتوقعها. عندما ندرك انكسارنا، لا موجب لنا للوقوع ضحايا الاكتئاب، عندما نرى جمالنا الحقيقي، لا موجب لنا لأن نتحول إلى طواويس من الزهو والخلاء. إدراكنا لانكسارنا وجمالنا يسمح لنا رؤية جمال الآخرين والتعرف على قيمتهم المخفية تحت انكسارهم وتركزهم على الذات. أحيانا يكون هذا الاكتشاف قفزة في الظلام، لحظة مباركة، لحظة نعمة، ولحظة تنور تأتي من لقاء إله المحبة، الذي يكشف لنا بأننا وكل الآخرين محبوبون. وينمو الرغبة فينا للوصول إلى الكمال والكفاح من أجل كمال ذواتنا، وذوات الآخرين، وكمال جماعتنا والعالم، وعندما نرغب في التحرر لنحرر الآخرين، تولد طاقة جديدة في داخلنا، طاقة

تبعث من الله. نكون كما لو كنا نعبر البحر الأحمر خارجين من العبودية إلى الحرية. نستطيع أن نبدأ ونعيش محتملين ألم الخسارة ونتقبل المعاناة لأن حبا جديدا ووعيا جديدا بالذات قد مُنح لنا.

لابد أن دعوة يسوع للجيليين إلى محبة أعدائهم قد بدت كطوباوية خطيرة عليهم وربما لم يبدأ أحدٌ منهم بفهمه إلا بعد أن شاهدوه وهو يقف في مواجهة الرؤساء الدينيين في وقته ويسلك طريقا شجاعا وخطرا إلى المحبة والحقيقة وتحرير المسحوقين، وفهموا عندها أنه طريق جديد للصراع من أجل السلام وكسر السلسلة التي يبدو أن لا نهاية لها للانسحاق البشري. محبة المسيئين إلينا تعني أن ننظر إليهم كأفراد ربما يكونون أسرى حلقة مفرغة من الخوف والقمع، أسرى لخصائص شخصيتهم، أسرى حاجتهم و (تعطشهم) إلى القوة، ولكنهم أفراد بالرغم من كل شيء يمتلكون قدسية وقيمة عالية ونفيسة وإن شخصهم السري مخفي وراء جدران الخوف. محبتهم تعني الأمل والتوق في تحررهم بدل من أن يعيشوا حالة تدمير الذات، مسجونين في سجن الكبرياء والزهو والقوة الخاص بهم.

ألم يكن يسوع، عندما ركع قبل ليلة موته بتواضع أمام تلاميذه، وغسل أقدامهم، ودعاهم إلى أن يفعلوا نفس الشيء، يعرف كيف يمكن للقوة أن تستخدم في سحق واستعباد الآخرين، بدلا من تفويضهم الحياة وتحريرهم؟. لنفوض الحياة إلى آخرين ونحررهم نحتاج أن نكتشف قوة الحب والمشاركة هذه، القوة التي تصدر من الله.

هذه الرؤيا بالحب تبدو مستحيلة إنسانيا. في يوم من أيام 1944 في معسكر اعتقال اوشوتز، وقفت مجموعة من الرجال في انتظار الإعدام. فجأة

تقدم رجل إلى الأمام وتطوع أن يُعدم بدلا من أحد المحكومين بالإعدام. كان الأب ماكسيميليان كولب. أصيب الأمر بالذهول، إلا أنه سمح للكاهن بأن يحل محل المحكوم. وهكذا التحق الأب كولب بمجموعة الرجال في القبو، حيث ساعد كل واحد من المحكوم عليهم على عبور درب الموت. وبعد أن ماتوا جميعا وبقي لوحده جاء الحراس وقتلوه هو الآخر. بعمله هذا كان الأب كولب شاهدا حيا على أن الحب أقوى من الموت.

وحدثا في عام 1996 في الجزائر، قتل الأب كريستيان دو شيرغيه مع ستة من اخوته الرهبان. رفضوا مغادرة ديرهم الذي كان يقع في منطقة خطيرة غير محمية، ليكونوا شهودا على حضور الله، الذي يحب كل كائن بشري مهما كان دينه الذي يدين به. لقد ترك كريستيان وثيقة مع أمه طلب أن تفتح بعد موته. وفيها طلبات شكر:

"في هذا أُل "شكر"، الذي أقوله من أجل كل شيء في حياتي، أنا بكل تأكيد أعنيكم أنتم أيضا، أصدقاء الأمس واليوم... وأنت أيضا صديق لحظتي الأخيرة الذي ربما لم تكن واعيا بما كنت تفعل. أجل، لك أيضا، أريد أن أقول هذه أُل "شكرا" إلى [الله] الذي رأيته من خلالك. لنأمل أن نلتقي ثانية في الفردوس كلصين طيبين غفرت لهم خطاياهم (إشارة إلى اللصين إلى جانب يسوع في عملية صلبه)، لو كانت تلك مشيئة الله أبانا كلينا.. آمين! إنشاء الله! "

نحن لدينا موهبة فائقة، موهبة الغفران!. دعوة المسيح إلى محبة الأعداء، دعوة ووعد للمسيحيين وغير المسيحيين على حد سواء: ما لا نستطيع أن نعمله لوحدنا نستطيع فعله بمساعدة قوة الروح الداخلية هذه، هذه القوة التي

تحول قلوبنا المتحجرة من الخوف، إلى قلوب من لحم، متحسنة و منفتحة على الآخرين. من خلال موهبة روح الله نستلم قوة جديدة تمكننا من الثبات في الحب.

نحن نعمل والله يعمل

المغفرة، فعل محبة عدوي، مثل عملية مغفرتي لِنفسي، ليست حدثا مفاجئا، تغيرا سريعا للقلب. في معظم الأحيان هي عملية تستغرق وقتا طويلا يبدأ بالرغبة في التحرر وقبول أنفسنا كما نحن، وأن ننمو في محبة من يختلفون عنا ومن آذونا أو من يبدون كمنافسين لنا. أنها عملية خروج من سجن "ما يعجبني" و "ما لا يعجبني" ومن سجن الكراهية والمخاوف، والسير إلى الحرية والحنو والعطف في عملية التحرر. قد تكون ما زالت هناك نواهي باقية، إمتعاضات، وسخط، ولكن يوجد أيضا هذه الرغبة المتعاضمة في أن نكون أحرارا.

أنا على يقين بأن هذه الرغبة تأتي من الله، الذي يعيش عميقا داخل كل واحد منا، إلا أن مجهودنا يجب أن يتوافق معها، على سبيل المثال أن نتوقف عن الابتهاج عندما يتكلم الناس بسوء عن أعدائنا، أن نكف عن انتقاد الآخرين والانتقاص من قيمتهم والتشبث بلساننا الذي ينفث سما. قد يعني ذلك مصادقة

من يصادقون أعداءنا، فربما استطعنا أن نبدأ بفهم عدونا. وهي تعني كذلك الكفاح ضد مشاعر التعاسة التي يشعر بها الضحايا، ومن ثم الاختفاء وراء مشاعر الخوف والاكتئاب والسخط والقصور الذاتي.

فهم العدو سواء أكان ذلك في داخلنا أو خارجنا جزء مهم من عملية المغفرة. فإذا عملنا على ذلك عمل الله معنا، وسنجد في يوم ما أن الامتعاض يبدأ بالاختفاء. الغفران هو أن نبدأ بالحب وقبول أنفسنا، محاولين فهم وتقدير كل ما هو مهم فينا جميعاً، مُصلين أن ينكسر ما يعيقنا عن التحرر مثل انهيار سد، بحيث يسري إلى الأمام ما هو الأكثر قيمة فينا. وتلك كانت صلاة يسوع الأخيرة:

" يا أبت، أغفر لهم، لأنهم ما يدرون ما يعملون... "

(لوقا 23: 34)

تعني المغفرة هدم جدران العداة التي تفصلنا، وأن نُخرج بعضنا البعض من معاناة الإحساس بالوحدة، الخوف، الفوضى إلى الشركة والتوحد والانسجام. هذه الشركة تُولد من الثقة والقبول المتبادل، وحرية أن نكون أنفسنا في فرادتنا وجمالنا، حرية ممارسة مواهبنا. لم نعد محتجزين ومقيدين إلى الوراء بالمخاوف والأحكام المسبقة، أو الحاجة إلى توكيد ذواتنا.

وعليه يولد الإحساس بالانتماء الضروري لانفتاح قلوبنا عندما نسير معاً، محتاجين إلى بعضنا البعض، مرافقين أحداً للآخر سواء كنا ضعفاء أم أقوياء، مقتدرين أولاً. هذا الانتماء لا ترافقه مشاعر التفوق إذا كنا نسير نحو الحرية الداخلية، لن يسعى إلى نبذ الضعيف والمحتاج والمختلف بل يسعى إلى

ضمهم إلينا لأنهم يمتلكون قوة سرية تفتح الناس وتقودهم إلى الحنو والعطف والثقة المتبادلة، و يتحول هذا الانتماء إلى ترتيبات امتنان لكل واحد منا. وبالطبع، فإن كل هذا يستغرق وقتاً. ولكن ألسنا جميعاً مدعوون إلى سلوك هذه الرحلة لو أردنا أن نصل إلى كمالنا الإنساني، و نتغلب على الانقسام والظلم ونعمل من أجل السلام؟ لو بدأ كل واحد منا اليوم هذه الرحلة وامتلك الشجاعة على ان يغفر ويُعْفِرَ له، لا يعود أذى الماضي يتحكم بنا. حيثما كنا . في عائلاتنا أماكن عملنا، مع أصدقائنا، في أماكن عبادتنا أو لهونا . نستطيع النهوض لنصبح وكلاء أرض جديدة. ولكن دعنا نكون متواضعين في طموحنا لأنه ليس المطلوب منا أن نكون مُخْلِصِي العالم! نحن ببساطة كائنات بشرية، يغمرنا الضعف والأمل، مدعوون معاً لتغيير عالمنا، مدعوون لأن نغير قلباً واحداً كل مرة.

Becoming Human

Jean Vanier

قد يبدو لقارئ كتاب "أصبح أنساناً"؛ موضوع المحبة سهلاً وبسيطاً أو يبدو مثالياً، و الحقيقة التي أراها ان جان فانييه يريد أن يدفنا إلى إعادة النظر في حقيقة موقفنا من الحياة بشكل شامل. انه يمك بأدواته بحذاقة ليفكك اعق قلق للإنسان ألا وهو قلق الموت، فالإنسان يخاف من الوحدة لأنه يخاف من الموت، ويكشف لنا فانييه هربنا من هذا القلق إلى انتماء سطحي بجماعة تمنحنا الطمأنينة باصطناع صراعات تغطي جوهر قلقنا، ويعيد بنائنا في انتماء أصيل إلى جوهر و معنى الوجود، فانييه يستخدم مرآة هي الأخ المعاق فنعيد بناء فهم و فعل المحبة معه وله ومن خلاله. جان فانييه يريد ان يدلنا على طريق الوجود الإنساني و معنى ان "تحيا بالنعمة"، فلنقرأ كتابه مرتين...على الأقل!!.

د. باهر بطي

بغداد/2000

Translation by Fr. Habib H. Jajou
& Jerar PUTRUS
St. George Chaldean Church
.Baghdad-Iraq
2001